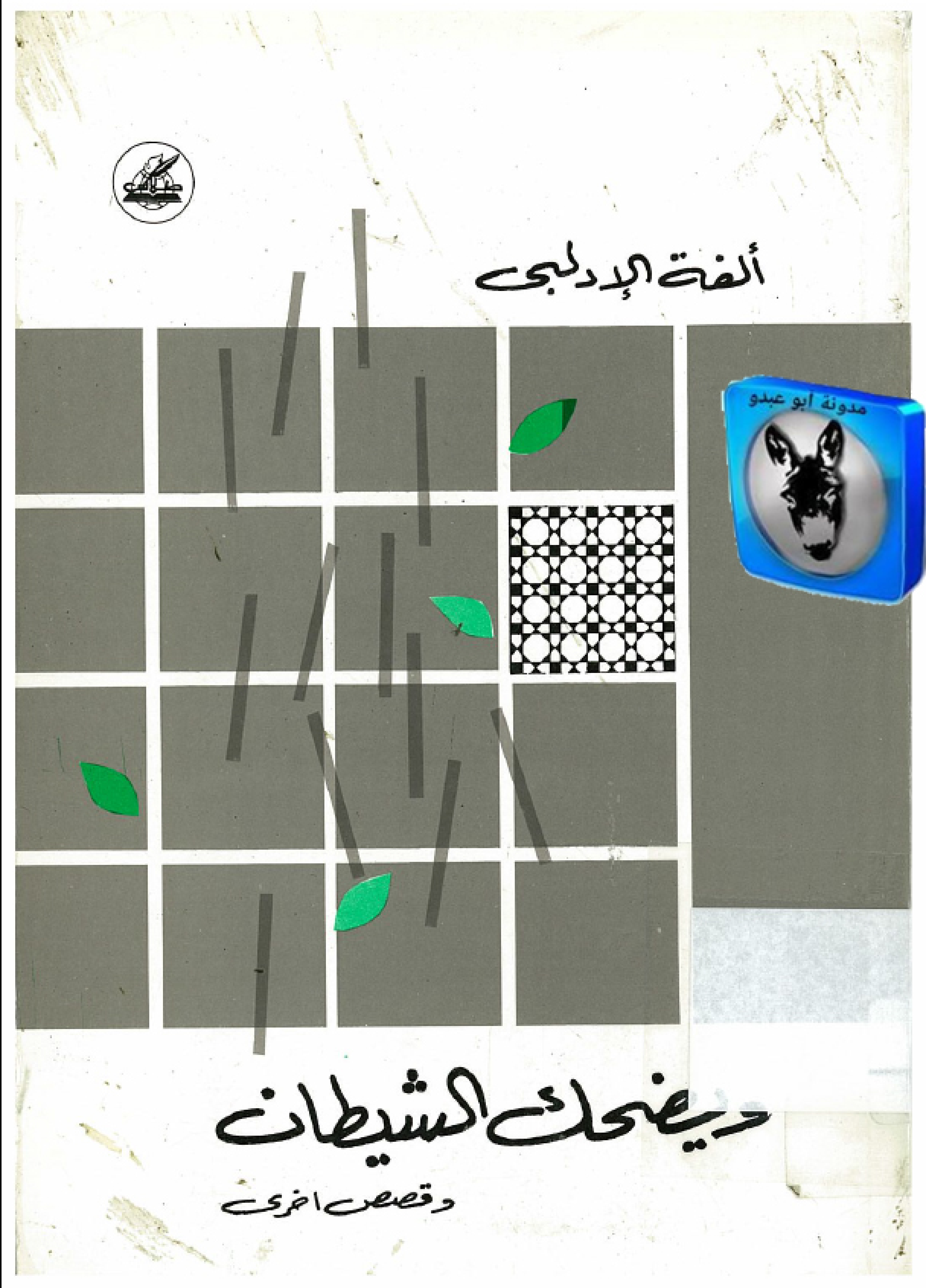

ألفة الإدلبي
مدونة ابو عبدو
ويضحك الشيطان
وقصص اخرى



دمشق ــ اوتوستراد المزة

هاتف

٢٤٤١٢٦ ــ ٢٤٣٩٥١ ــ ٢١٣٨٢١

تلكس : ٤١٢٠٥٠

ص. ب : ١٦٠٣٥

العنوان البرقي

طلاسدار

TLASDAR

ريع الدار مخصص

لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

ويضحك الشيطان

الـطـبـعـة الأولـى
١٩٩١

ويضحك الشيطان

صمت عنيد يسيطر على غرفة الجلوس ، سأم لزج يغلف الأثاث ، ينحدر على الجدران ، على الستائر المنسدلة ، الشتاء ثقيل ، كل شيء في الغرفة مغلق ، حتى كأنها انقطعت عن العالم وتقوقعت على نفسها في عالمها الخاص . في زاوية منها ارتكز راديو ، قبالته تماماً ربض تلفزيون ، كانا يحملقان ببعضهما كأنهما يتساءلان بإلحاح : لمَ جيء بهما إلى هذه الغرفة ؟ أمن أجل نشرة أخبار يؤديها الراديو أول النهار ، ويعيدها التلفزيون أول الليل ، ثم يُهجران حتى موعد النشرة في اليوم الثاني ؟

أما من يد لعوب تداعب أصابعها الحانية أحدهما فتفك عقاله ليقتل الصمت ، ليغسل لزاجة السأم ؟

ولم تكن الغرفة خالية !.. كان فيها إنسانان ، رجل وامرأة ، كتب عليهما أن يكونا زوجين ، فاستسلما إلى قدرهما صاغرين .

منذ سنوات ثلاث جمعتهما مصادفة عابرة ، فما كاد يراها حتى أخذ بها .

— هذه ليست امرأة .. هذه حورية من الجنة .. ملاك من السماء ، العيش معها نعيم .. ومتعة .. وسلوى ...

وكان أكثر ما يجذبها إليه قوة شخصيته ، مركزه المرموق ، الذي ستعتز به أمام صاحباتها ، ويخيل إليها أنها عثرت على الرجل الذي ستجد في كنفه السعادة ، والدعة ، والطمأنينة . ويتزوجان ، والأحلام العِذاب تداعب خياليهما . وما يمضي شهر واحد على زواجهما حتى يبدأا يكتشفان خيبتهما الكبيرة ...

اكتشف هو تفاهتها التي لا تحتمل ، والتي تطغى على ما فيها من جمال وإغراء فتفقدهما ما كان لهما من تأثير عليه . وتكتشف هي جفاف طبعه الذي يزهِّد بالحياة ، ورتابة عيشه التي تبعث السأم والملل حتى في أكثر النفوس حيوية . حاولت بادئ الأمر أن تستجره إلى دنياها ، دنيا المجتمعات الصاخبة ، والحفلات الراقصة ، وحاول هو أن يرفعها إلى عالمه ، عالم الفكر ، والفن ، والأدب . فما أفلحت ، وما أفلح !..

خرجت من دنياها ولم تستطع أن تلج دنياه ، فارتدت على عقبيها وضاعت في منتصف الطريق . ولم تكن حاله خيراً من حالها

كانت غرفة الجلوس تشهد كل ليلة مأساتهما ، وهما يجتران سأمهما ويعاودان اجتراره .

كان هو يجلس على مقعد ، ويمدد ساقيه الطويلتين النحيلتين على مقعد آخر ، ويضع في حجره كتاباً ضخماً يضيع بين صفحاته حيناً ، وبين دخان لفافته حيناً آخر .

وكانت هي تتمدد على أريكة تلبث عليها ساعات ، عيناها الواسعتان تحملقان في سقف الغرفة ، وفي نقطة لا تحيد عنها . في رأسها فكرة تنخر كالسوسة الدؤوب :

ـــ إلى متى أتحمل هذه الحياة الرتيبة التي لا تحتمل ؟ ما الذي يشدني إلى هذا الرجل وقد أصبح العيش معه لا يطاق ؟

أشعر أنه يكرهني ، يكاد لا يطيقني ، أعصابه دائماً كأوتار مشدودة لا تتحمل لمسة حتى تنفجر لأوهى سبب . ولا تهدأ ثورته علي إلّا حين أتوارى من أمام وجهه . إذا أحببت أن أستمع إلى أغنيات الراديو ، أو أشاهد بعض برامج التلفزيون التي تعجبني اتهمني بالتفاهة والسطحية ، فاضطر إلى إقفالهما لأسكته عني . أما هو فلا يروقه منهما إلا نشرة الأخبار يتابعها من محطة إلى أخرى ثم ينتهي إلى تلك الندوات الجافة ، والأحاديث الثقيلة التي تسبب لي وجع الرأس . لقد سئمت القعود في البيت ، هو لا يحب أن يرافقني إلى حيث أريد ، وأنا لا أجد متعة حين أرافقه إلى حيث يريد ، وكلانا لا

يحب أن يخرج وحده إلى حيث يريد وقد اصطحب الآخرون أزواجهم كي لا يثيروا الأقاويل ، كلانا يخشى الناس ، الناس جحيمنا . وكأن قدرنا يشدنا دائماً إلى هذا البيت ، وإلى هذه الغرفة بالذات ، وكأننا منذ تزوجنا قد زهدنا بكل مباهج الحياة ، أو قرفنا منها . لا .. لن أصبر على هذه المهزلة أكثر مما صبرت . لقد قتل هذا الرجل في نفسي كل الرغبات الحلوة ، لا يجوز لي أن أدفن صباي من أجل إنسان موسوس ، لقد أفقدني الثقة في نفسي وجعلني أهملها هذا الإهمال الفظيع حتى سمنت وترهلت وأنا لا أزال في أوج شبابي !.. في هذه الليلة ، بل في هذه اللحظة سأفقأ تلك الدملة التي تنقف في حنايا نفسي ، لم أعد أستطيع تحملها .. سأطلب منه بإصرار أن يحل رباطنا المقدس لأنه لم يعد مقدساً في نظري أبداً ، فمن الخير لنا أن يذهب كل واحد منا في سبيله .

تجلس . تلتفت صوبه . يلتفت صوبها .تلتقي نظراتهما . تفتح فمها لتنطق بما صممت على النطق به ، صوت من أعماقها يصيح بها :

ــ اخزي الشيطان يا امرأة .. هذا الرجل قسمتك ونصيبك ، لا تشمِّتي بك الأعداء .. مَنْ من الرجال يرضى بك وقد أصبحت بهذا الشكل المخيف من الترهل والسمن ؟ .. ألم تقل لك أمك عز المرأة بيتها وزوجها مهما يكن حظها من الزوج سيئاً ..

وإذا هي تبلع ريقها ، تقول له دون أن تنظر إليه :

ـــ ما رأيك بفنجان من القهوة ؟

يقول لها دون أن يرفع رأسه عن كتابه :

ـــ أفضِّل الشاي .

تقوم متثاقلة، تفتح الباب، تسير نحو المطبخ. يتأملها باشمئزاز وكره. تبدأ سوسته بالنخر :

ـــ لست أفهم ما الذي يربطني بهذه المرأة ؟ امرأة تافهة ، لا تحسن حديثاً ، ولا تفقه شيئاً ، بليدة ، حتى جمالها الذي كان خير ما فيها لم تعرف كيف تحافظ عليه ، سرعان ما ترهلت ، وكيف لا تسمن ولا همَّ لها إلا التهام الطعام ؟ ..

وإذا أبديت لها أي نصح راحت تبكي وتنق ، وتلعن حظها ، والساعة التي تعارفنا فيها ، ولا يخلصني من مناقرتها إلا التهرب من وجهها .

فترَّت همتي ، قتلت طموحي ، ابتلتني بالقرف من الحياة ، ما الذي يشدني إليها ؟؟ لِمَ لا أطلقها ؟.. يا لي من جبان !.. سأقول لها الليلة ، بل في هذه اللحظة حين تعود :

اذهبي فأنت طالق ..

وتعود حاملة فنجاني الشاي ، يتناول الفنجان من يدها ،

تجلس قبالته ، يفتح فمه لينطق بما عزم على النطق به ، فإذا صوت من أعماقه يصيح به :

ــ اخزِ الشيطان يا رجل .. هذه المرأة قسمتك ونصيبك ، أنت الذي اخترتها ، ما ذنبها إذا خلقت بليدة . ولم تكتشف أنت بلادتها إلا بعد الزواج ؟ ما من امرأة غيرها تحتمل سوء خلقك ، وعصبية مزاجك ، وجفاف طبعك .

يطبق فمه وهو يصر على أسنانه ، ثم يشربان الشاي في صمت ، ويعودان إلى ما كانا عليه ، يجتران سأمهما كما كان حالهما البارحة ، وأول البارحة ، وكما سيكون غداً وبعد غد .

فإذا استبد بهما الضيق إلى حد لا يطيقانه ، لجأ هو إلى علبة تبغه يستل منها اللفافة تلو اللفافة يعب سمها بعنف ، وينفثه بعصبية ، وعكفت هي على صحن مليء بالطعام الدسم ، تلتهمه بشراهة كأنها تثأر من عدو ؛ ويظل هو ينحل ويزداد عصبية ، وتظل هي تسمن وتزداد ترهلاً وغباءً ، وتظل السوستان في رأسيهما تدأبان على النخر ، حتى إذا أوشكتا على النجاح ارتدتا على أعقابهما ، ولكن لا تلبثان إلا قليلاً ثم تعاودان النخر من جديد .

لأن الرجل والمرأة كانا في كل مرة يخزيان الشيطان . أو يتوهمان أنهما يخزيان الشيطان .

ويضحك الشيطان في كل مرة منتشياً بالنصر .

من أجلكِ أنتِ

صحوت من نومي مرتاعة أرتجف .. أنفاسي تتلاحق .. قلبي يسقط في هاوية ..

رفعت يديَّ ، قرَّبتهما من عيني حملقت بهما ، لك الحمد يا إلهي إنهما غير ملوثتين بالدماء ... ما هو إلا حلم ، حلم رهيب مرعب !..

وترتمي يداي فوق اللحاف متعبتين كأنهما مشلولتان .. أغمضت عيني .. لبثت برهة ساكنة ألملم فلول ذهني المشتَّت .. تعاودني ذكرى الحلم الفظيع .. يقشعر بدني .. يدي اليمنى تزحف ببطء . تتحسس أحشائي بوجل وحنان ...

لا تخافي يا صغيرتي إنه حلم .. مجرد حلم تافه .. ما لك تتقلّصين في أحشائي هكذا ؟؟ إنك تؤلمينني .. هل أرعبك الحلم

الرهيب كما أرعبني ؟.. وهل رأيتني كيف كنت أمشي بك إلى تلك الغابة الموحشة ، وأنت صغيرة حلوة بلغت الثالثة من عمرك ؟.. هناك تركتك هنيهات قليلة تمرحين بين الأشجار ، كنت أركض وراءك ، أقبض عليك بين حين وحين ، أضمك إلى صدري ضمات هوجاء ، كأني أريد أن أفنيك فيَّ ، أن أرجعك إلى أحشائي مرة ثانية ، أقبلك بنهم ، أريد أن أفرغ حبي كله في قبلة واحدة .. كنت تتملصين من ذراعي الأخطبوطيتين ، تقفزين هنا وهناك كغزال صغير أرعن ، شعرك الأشقر المضموم عند نقرتك ينوس على ظهرك كذنب مهر مدلل .. لم ترَ عيناي أحلى منك ولا أروع ..

تلفت حولي لم أرَ أحداً .. الظلام بدأ يلف الغابة ، أشجارها الباسقة بدت لي كأشباح مخيفة في رؤوسها آلاف العيون ، تحدق إليّ متوعِّدة كأنها تريد أن تنقض علي ، أن ترجمني ، لا شيء يخيفني ، فواقعي أشد فظاعة من كل ما أرى !..

آن الأوان .. وجاءت الساعة الرهيبة .. يجب أن أنفِّذ ما صممت على تنفيذه ..

فتحت محفظتي .. أخرجت مدية حادة النصل .. أخفيتها خلف ظهري .. تقدمت منك على مهل وحذر ، كنت لاهية عني تلاحقين فراشة زاهية الألوان تحوِّم حولك . امتدت يدي ، كآلة ليست مني ، قبضت على ضفيرتك التي كانت تعربد على كتفيك ..

جذبتك إليَّ .. أغمدت المدية في عنقك الطري .. انبثق الدم على يـدي .. ذُعـرت .. قـذفت بك بعـيـداً .. رأيتك تتخبطـين فوق التراب .. المدية مغروسـة في عنقك .. الدم ما يزال ينفر .. يصبغ الأرض من حولك .. وجدتني أصرخ كحيوان جريح .. صحوت على صراخي مرتاعة أرتجف ..

إنـه حـلم .. حـلم سخيف أحمق .. لا تخافي يـا صغـيرتي الحلوة .. لن يتحقق الحلم الأحمق .. معاذ الله أن يتحقق ..

مرة ثانية أرفع يدي ، أتفرس بهما ، إنهما شاحبتان ترتجفان كجناحي حمامة تحتضر .

أصحيح أننــا نحقق في أحـلامنــا ما نعجز عن تحقيقـه في واقعنا ؟؟ وأن في لا وعيي أنا تصمياً على قتل هذا الجنين الذي ينمو في أحشائي منذ أكثر من سبعين يوماً ؟ ودائماً كنت أتخيله طفلة حلوة ، ذهبيــة الشعر كتـلك التي حلمت أنني قتـلتهـا في الغـابة . وكنت أتصورها كلما رأيتها في الحلم . وكم تخيلتني أماً لهذه الطفلة منذ زمن بعيد ، منذ كنت أنا طفلة ألعب بالدمى .

أعود إلى واقعي .. أتحسس أحشائي بحنان ، أقول :

لا تخافي يا صغيرتي الحلوة لن أتخلى عنك ، لن أوذيك ...

من حسن طالعنا ـــ أنا وأنت ـــ أن ليس لي أهل يحاسبونني على مجيئك إلى هذه الدنيــا ، وأنهم إن عفوا عني ، لن يعفوا عنك

أنت .. سيجبرونني على التخلي عنك قبل أن تري النور ! .. لا ، لا ، لن يستطيع أحد أن يقضي عليك ، ستأتين إلى هذه الدنيا صحيحة معافاة ، وسأرعاك بكل ما لدي من حب وحنان . وحين تكبرين وتصبحين صبية سأقص عليك حكايتنا ، سأبدأها هكذا :

أبواي يا صغيرتي ماتا غريبين في هذا البلد ، تركاني كغصن مقطوع من شجرة لا جذور لها . منذ ماتا ما عرفت حنان الأهل ، ولا رعاية الأقرباء !..

في غمرة حزني وضياعي تعرفت بشاب من صغار الموظفين ، جاء يعمل حيث كنت أعمل ؛ ويشاء القدر أن يكون عملنا في مكتب واحد ، وما لبثت أن ألفته وأنست به ؛ وراح هو يتكلف لي العطف والحنان ، وكنت كالعطشى اللاهفة اليهما . فأحببته !.. أحببته بقوة كل ما ترسب في أعماقي من كبت ولهفة .. فلما خطبني كدت أجن من الفرح .. خيل إليَّ أن دنياي كلها قد تقمّصت شخصه . سمحت له أن يزورني في بيتي حيث كنت أسكن وحدي . وثقت به ، وكيف لا أثِق بهذا الذي كان يرتمي على قدمي ويسألني بلهفة الولهان :

قولي لي يا حبيبتي متى سنتزوج ؟؟

كنت أهدهد لهفته بقولي له :

وهـل يروقك أن ينـدِّد بي النـاس فيقـولوا : يا لها من عاقة تزوجت قبل أن يمضي أوان الحداد على أبيها !..

وقبل أن يمضي أوان الحداد ونتزوج كما كنا نحلم ، كان أبوك يا صغـيرتي قد انصرف عني إلى أخرى !.. إلى زميلة جديدة جاءت تعمل في نفس الدائرة التي كنا نعمل بها .. كانت أصغر مني ، وأكثر جمالاً وإغراءً فاستطاعت أن تنتزعه مني !.. اكتشفت الخيانة ؛ فما بكيت وتألمت بقدر ما اشمأزّيت وقرفت .. صدقيني لم أجابهه بكلمة واحدة . طـلبت من الرئيس أن ينقـلني إلى غرفة ثانيـة فاستجـاب لطلبي .

هكذا تواريت عن درب أبيك بصمت وكبرياء .. انطويت على نفسي ، رحت أداري جراحي ، وأجتر فشلي وقهري ... لم تنتهِ المأسـاة !.. اكتشفت وجودك في أحشـائي !.. هرعت إليه كمثل مجنونة ، حطمت كبريائي العنيدة على قدميـه !.. توسـلت إليه أن نتزوج لنمنحك شرعية وجودك ، وليطلقْني بعدئذ متى شاء .. حلفت له أنني لن أطالبـه بشـيء من أجلك مدى الحيـاة ، ثروتي الضئيـلة تكفيني وتكفيك .

ولكنـه أبى !.. لم تحركه دموعي وتوسـلاتي .. قال لي بلؤم قتّالٍ :

إنه اكتشف بعد عشرتنا الطويلة أننا لا نصلح زوجين !.. ولا

أدري كيف تجرأ أن يقول لي ، إن قصة الحمل هذه ما هي إلا أكذوبة . شرك نصبته له لأجبره على الزواج بي .. وما زلت أذكر كيف قال لي أيضاً بتهكم ، وكأنه أراد أن يقطع علي كل سبيل لتسوية مشكلتنا :

ومن يدريني أن الجنين الذي تدعين أنه في أحشائك هو ابني أنا ، وليس ابن غيري ؟؟ ألم ننفصل منذ أكثر من شهرين ؟؟

صعقت .. خرست .. ماذا يقول هذا النذل ؟؟!..

أيتهمني بالفجور وهو أدرى الناس بطهري وبراءتي ؟؟..

أين هي الكلمات التي تعبر عن ثورتي ، وقهري وكرهي ؟..

تمنيت أن أصفعه ،.. أركله .. أبصق عليه . ولكني لبثت في مكاني ذاهلة دون أن أتحرك .. كأن الدم قد جمد في أطرافي ، استحال سماً وصديداً .. شعرت بالغثيان ، رغبت في أن أتقيأ ..

بعد فترة صمت لا أدري مداها ، اقترب مني وقال وهو يتكلف العطف والمداراة :

أستطيع أن أساعدك إن شئت . لي صديق طبيب لا يرد لي طلباً . ويخرج من جيبه ورقة يكتب عليها عنوان الطبيب ويدسها في محفظتي ثم يردف قائلاً : سأكلمه اليوم . اذهبي إليه غداً في الساعة

الثامنة ، سينقذك من الفضيحة ، وهذا كل ما أستطيع أن أفعله من أجلك ..

خرجت من لدنه وكأني قد بدلت شخصاً آخر يريد أن يستمد من ضعفه قوة .

شعرت أنني لم أعد أهتم بأمر .. ولا أبالي بأحد .. لمَ هذا التهويل كله ؟؟ هل قصتي هي الأولى من نوعها ؟. إنها قصة عتيقة ، قديمة ، قدم الإنسان على الأرض .. فتاة غرَّة وقعت في فخ نصبه لها رجل ذئب .. وما أكثر بنات حواء أمثالي اللواتي وقعن في فِخاخ الذئاب !..

آه الذئاب !.. قطيع من الذئاب يحمل رؤوساً بشرية يطاردني ، يعوي ورائي .. أسرع الخطى ، أركض كمجنونة ... يخيل إلي أن الناس تتفرج علي .. لا أبالي بأحد . أدخل بيتي أوصد بابي . أرتمي على أول مقعد وأنا ألهث .. أظل مكوَّمة مكاني في الظلام . لا يد حانية تهدهدني ، لا صدر حنون أدفن رأسي فيه وأجهش بالبكاء .. القهر .. الحيرة .. الضياع .. الخوف .. الوحدة .. كلها تتقاذفني .. إن غفوت قليلاً بعد إعياء صحوت على حلم مزعج كحلم الغابة ...

عادت أحشائي تتقلص وتؤلمني ... لا تخافي يا صغيرتي لن أذهب إلى الطبيب ليمزقك كما أراد لك أبوك !.. سأتعهدك وأنت في

أحشـائي حتى تطـلّي على دنياك صحيحة معافاة . سأتحدى بك الناس ، كل الناس ، معارفي ، أصدقائي ، زملائي ، رؤسائي ، لا أحد يُهمـني كما تُهمينني أنت . من أجلك أرضى أن أعيش منبوذة ، لن أروي قصتي لأحد لأبرئ نفسي ، سأصمت كما صمتت أم المسيح .. سـأكرس لك نفسي ككاهنة ترعى معبداً ، سأكافح لأفرش دربك بالمخمل والحرير . ستكونين صديقتي ، وأختي ، وابنتي الوحيدة ، لأنني لن أقع في التجربة مرة ثانية ..

آه كم أكره الرجال ... الرجال الذئاب ...

ها أنذي أتخيلك في كل أدوار حياتك ، طفلة رضيعة تداعب صـدري بأناملهـا الطرية ، صغـيرة شيطانة تعبث بأشيائي فاركض وراءها مهددة متوعدة فتفر مني ضاحكة هازجة ، صبية فاتنة أنيقة أخيط لها ملابسها ، وأرقب عودتها من المدرسة ملهوفة لأثرثر معها ، ثرثرتنا لا تنتهي ، وشوقي إليك لا يخبو أواره . ما أسعدني بك ، وما أسعدك بي ...

ولكن آه ... مـالي أراك تعـودين اليـوم مكفهـرة الوجـه ؟؟ تنظرين إلي بعينين حاقدتين لئيمتين تشبهان عيني أبيك يوم رأيته آخر مرة ... ثم تنفجرين باكية وأنت تقولين لي :

لَم كتمت عني الأمر ؟؟..

لقد تخلى عني خطيبي حين عرف أنني مجهولة الأب !..

عـرف أنني بنت حرام !.. وصـمـة عـار ستـلازمني مدى العمر !.. وكيف أستطيع أن أتخلص من عارها وأنا في هذا الشرق الذي سيحاسبني على هفوتك أنت دون تسامح أو رحمة !..

لَمَ لم تقتليني في أحشائك كما يفعل غيرك من الأمهات في مثل موقفك ؟؟ أنت أنانية .. تريدين أن تؤنسي وحشتك ، لقد فكرت بنفسـك ، لم تفكـري بي أبداً !.. سـأعرف كيف أنتقـم منك ، سأنتحر !..

وتهرعين إلى غرفتك ، توصدين بابها في وجهي ..

أنـا خـلف البـاب أخبطـه بيدي ، لقد جننت .. أبكي ، أتمـزق .. أتـوســل إليك .. أنت لا ترحمينـني ، ولا تحرك عطفك توسلاتي !..

فجـأة أقفز من مكاني كمن لسعَه سوط ، ما أدري كيف أرتدي ملابسي ، أنبش محفظتي لأعثر على عنوان الطبيب . سأكون عنده في الساعة الثامنة تماماً ..

يـا صـغـيرتي المسـكينــة !.. لقد تآمرنا عليك ، أنا وأبوك والطبيب !...

الحلم السخيف الأحمق سيتحقق بعد قليـل !.. ستطاردني ذكراه بمدى العمر ..

يداي تخيفاني ، بقع حمراء راحت تنتشر عليهما ...

مالكِ عدت تتقلصين في أحشـائي ؟؟ إنك تؤلمينني .. لن تثنيني عن عزمي مهما أثرت حناني !..

سأقدم .. سأقدم على الأمر الفظيع !.. وسأحرم منك !.. لا من أجلي أنا ، بل من أجلك أنت ...

هربت من جحيمها

تخيفني نظراته الثاقبة ... ترعبني .. تخترق رأسي كسهام مسنونة ... تنبش دماغي .. أخشى أن تعثر فيه على السر الرهيب !...

لماذا يتفرس في وجهي ؟. إنه يحملق بي على غير عادته ... أيجد تصرفاتي غريبة ؟ يا إلهي كيف أستطيع أن أبدو أمامه على طبيعتي تماماً ؟؟ لم أعد أستطيع النظر في عينيه .. لا شك أن نظراته تلاحقني كيفما تحركت .. أيصور لي الوهم هذا ، أم هي حقيقة الواقع ؟ كيف يتسنى لي أن أعرف ذلك ؟ أيريبه صمتي وذهولي واضطرابي ؟؟...

لقد ازداد موقفي حرجاً منذ انتهى المأتم ، وانصرف عنا الأقارب والأصدقاء ، وبقينا في البيت وحدنا ، أنا وهو . أصبح يتحتم علي أن أظل إلى جانبه ، أتحدث إليه ، أرفه عنه لأخفف من حزنه

ولوعتـه . كلمـا حاولت ذلك خانني النطق وهربت الكـلمات من ذهني ! ..

كيف أتحدث إليه ؟؟ ماذا يقال لأب فقد طفلته الوحيدة في حادث أليم مروِّع ؟؟

حين عاد اليوم إلى البيت من عمله حياني بلطف وحنان ، بل حاول أن يبتســم على الرغم من حزنه ، غير أن نظراته ظلت ثاقبـة ملحاحة كمدأب يعمل في دماغي ، أو هكذا خيل إلي ... ارتبكت ورحت أرتجف ، وأتحاشى النظر إليه ، أشحت عنه بوجهي .. كانت إلى جانبي مرآة معلقة على الحائط عكست وجهي مخيفاً ، مرعباً ، لا لون له ، حتى كدت لا أعرفه أنا .. وجه مكهرب ، نظرات زائغة ، شعر منفوش .. يا إلهي كأنه وجه مجنونة ! .. لا .. لا .. إنه وجه مجرمـة آثمـة !... كيف لا يـلفت نظـره الذعر الواضـح في نظراتي التائهة ؟ ..

سحبني من يدي إلى مقعد اعتدنا أن نجلس عليـه ، جلس قبلي . وقفت أمامه جامدة كصنم ، ما أدري كيف أتصرف .. أخذ يدي وراح يمرِّغها على وجهه .. نظر إلي والدموع تملأ عينيه ، قال لي بحنان ما عهدته به قط :

ــ أخشى أن يمرضك الحزن !.. أراك أشد لوعة مني .. لم يعد لي أحد سواك .. كم أنت امرأة طيبة ، بل نادرة .. لم يخطر لي أبداً أنه

توجد امرأة نظيرك تحزن على فقد ابنة زوجها كما تحزنين أنت على فقد ابنتي . تعالي نتعاون على النسيان .

كانت كلماته تمزقني كخناجر حادة .. دخت .. تخاذلت ركبتــاي .. بركت أمامه على الأرض . دفنت رأسـي في حجره .. رحت أجهش بالبكاء ...

في تلك اللحظة سيطرت علي رغبة ملحَّة في أن أعترف له بكل ما يدور في ذهني ، ويعذبني ، فأقول له مرة واحدة :

ـــ أنا القاتلة !...

نعم أنا التي قتلت صغيرتك الحلوة التي تعبدها ، فافعل بي ما شئت .. هاأنذي أضع نفســي بين يديك فـارِو غُـلَّتك مني .. قتلتها !.. نعم قتلت تلك الصغيرة البريئة التي كانت تشغلك عني ، وتستأثر وحدها بحبك ، ورعايتك وحنانك ... أتدري أنني رأيتها حين تسللت إلى الشرفة ؟ ثم رأيتها حين راحت تتسلق الكرسي الذي نسيته أنت قرب الدرابزين ؟. تسمرت مكاني ورحت أراقبها من بعيد .. لم أهرع إلى إنقاذها !.. يا إلهي كيف لم أهرع ؟ كيف لم أهرع ؟؟ ماذا جرى لي ؟ لا شك أنني جننت !.. رأيتها تتدلى من الشرفة لتنظر إلى الشـارع . كان رأسها الصغير الجميل يتلفت إلى اليمين وإلى الشمال فتنوس على كتفيها جدائلها الشقراء التي جدلتها أنا بيدي قبل قليل .. خشـيت أن تخونني عاطفتي فأسـرع إلى نجدتها ، أنا التي حين كان

يمزقني الغيظ منها كنت أتمنى لها الموت دون رحمة . أغلقت على نفسي باب المطبخ ، ورحت أتشاغل عنها في إعداد طعام الفطور . كنت أنت في الحمـام ، وكانت الخـادمة قد ذهبت إلى السـوق . مرتين وجدتني أهرع نحو الباب فأضع يدي على أكرته لأفتحه وأسرع إلى إنقـاذها ، ولكن يدي !.. آه شُـلت يدي !.. كانت في كل مرة تتراجع في بطء لأنه كان يمر في خاطري بسرعة البرق كل ما قاسيته منك بسببها . كنت أنت السبب ! .. أنت الذي دفعتني لأفعل ما فعلت من حيث لا تشعر .. لأنك جعلتني أكرهها . تصرفك الفظ معي جعـلني أحقد على طفـلة بريئة !.. كنت أتمثل في ذهني دائماً ولعك بها ، وإهمالك لي !.. أنا التي أحببتك حتى الوله . ما شعرت مرة أنك عدت إلى البيت وبك حنين إليّ !..

كنت تفتح لها ذراعيك وتضمها إلى صدرك بوله عجيب دون أن تلتفت إلي ، وتجود علي بنظرة واحدة مهما تزيّنت وتأنّقت وبذلت أقصى جهدي لأثير اهتمامك . ثم تظـل تداعبهـا حتى أنتهي أنا من إعداد المائدة ، وكنت تصر على أن تجلسها بيننا ، وأن تطعمها بيدك . وما أذكر أننـا كنا نتحدث بغير الحديث عنها . حتى إذا انتهينا من الطعام كنت تضعها في حجرك وتظل تحكي لها الحكايات وتهدهدها حتى تنام . وكان هذا كله يتكرر في المساء أيضاً . ولقد ذهب بك ولعك بها إلى حد جعلك تضع سريرها في غرفة نومنا كي لا تغيب

عن عينيك وذهنك لحظة واحدة . وكم من مرة قلت لي وأنت تتفرّس في وجهها :

ــ ألا ترين أن عينيها جذّابتان جميلتان كعيني أمها تماماً ؟ وتروح تقبل عينيها ... أكنت تنسى أن التي تحدثها قد أصبحت امرأتك ، ولم تعد مجرّد ابنة عمك الكبيرة ؟ وأن تصرفك هذا يثير غيرتها ، بل يهين كبرياءها ؟ ...

بعد هذا كله تأكد لي أن طفلتك ستظل حاجزاً منيعاً بيني وبينك ، ووجودها سيحول دون محو ذكرى أمها من ذهنك مهما بعد العهد بها .

آه لو أنك تدري كم قاسيت من أمها !..

أتذكر يا ترى تلك الأيام ؟ أيام عودتك من أوروبا بعد أن أنهيت دراستك فيها . كيف كنا نحتفي بك نحن بنات الأسرة وشبابها ؟ كيف كنا نقيم لك في كل بيت من بيوتنا حفلة راقصة تكريماً لك ، كي لا تشعر بوحشة في بلدتنا الصغيرة بعد عودتك من الغرب ؟ وما أدري ما الذي حدا بك في تلك الآونة لأن تتودد إلي ؟ أكان توددك مجرد مجاملة ؟ أم كان كجبر خاطر لفتاة عانس قلما يتودد إليها أحد ، أو يدعوها إلى الرقص شاب في مثل تلك الحفلات الصاخبة ؟ كيف أنسى قولك لي ذات ليلة وأنت تراقصني :

ــ أنت فتاة رائعة .. لك طبع خاص ، ما رأيته في فتاة

غيرك ، إن أهل هذا البلد لا يدركون معنى جمالك وأناقتك ، كم تجيدين اختيار عطورك وثيابك . عندما أراقصك تحملينني إلى هناك .. إلى باريز .. فأحسبني أراقص باريزية أنيقة .

آه لو تدري ماذا كانت تفعل بي كلماتك التافهة تلك والتي لم يسبق لي أن سمعتها من رجل غيرك .. لقد حرَّكت فيّ شعوراً غريباً .. كنت قد استسلمت إلى واقعي ورضيت به ، لأنني كنت أدرك أنه قلما تتزوج في بلدنا فتاة قد تجاوزت الثلاثين من عمرها . لكن اهتمامك بي أعاد الأمل إلى نفسي . أصبحت أتخيل دائماً نظراتك الحنونة التي كنت توجهها إلي ، وأردد كلما خلوت إلى نفسي كلماتك الحلوة الرقيقة وأترنم بها فأشعر بنشوة ما ذقتها عمري .. ويصبح شغلي الشاغل أن أبدو أمامك أنيقة ، جميلة مهما كلفني ذلك من جهد ومال . كنت أشتري لكل مناسبة نجتمع بها ثوباً جديداً من أغلى قماش ، وعلى أحدث طراز كي أسمع تعليقاتك الذكية عليه فأتيه وأطرب لها . وما أدري لمَ أصبحت على مثل اليقين من أنك تحبني ، ولا بد لك أن تخطبني يوماً ما . ورحت أترقب تلك اللحظة ملهوفة ، وأنام وأصحو وأنا أحلم بها ... ولكن أحلامي وآمالي انهارت كلها في طرفة عين !.. انهارت لحظة بلغني أنك خطبتها !.. صديقتي الصغيرة ذات العينين الخضراوين البلهاوين !.. ومن سخرية الأقدار أن أكون أنا واسطة التعرف بينكما !.. لم يخطر

لي أبداً أنك ستعجب بتــلك الدميــة الفــارغة ، أنت الذي تقدِّر الذكاء ، والذوق والأناقة ، واللياقة كما كنت تدعي !..

ما من أحد علم بالذي قاسيت في وحدتي سوى وسادتي التي شربت من دموعي حتى رَويت !...

ولم يحلُ لك أن تسكن أنت وعروسك إلا قبالة بيتنا تماماً . كنت أراكما كيفما تلفت ، وكان هذا يزيد من ألمي وتعاستي ... لم يعد لي شاغل سوى أن أراقبكما من شباكي . كنت لا أنام حتى ينطفئ نور غرفة نومكما عندئذٍ كنت أتخيل ما كان يجري فيها فأتأ لم وأتحرق ثم أهوي منكفئة على سريري البارد وأنا أشعر أنني أتعس مخلوق على وجه الأرض . كنت أدرك مدى سخـافتي فأكتمهـا في نفسي وأجدني عاجزة عن مقاومتها فأكره ذاتي وأزدريها !...

مـا أظنك أدركت على الرغم من ذكائك وفراستك ما كان يعتمـل في نفسـي من حقد عليكما وحسد منكما . كان لي قدرة عجيبة على إخفاء شعوري أمامكما . كنت أحيل دموعي بسمات ، والكبت يمزقني ... ثلاث سنوات مضت وأنا أجتر آلامي في صمت ذليــل دون أن يـدري بي أحد . وإذا المـوت ينتصر لي ذات يوم فيخطف منك تـلك التي خطفتك مني .. لم تعـد تجد أمامك من يواسيك في مصابك ، ويرعى طفلتك اليتيمة التي لم تتجاوز السنتين

من عمرها سواي . أنا بنت عمك الكبيرة ، وجارتك القريبة ، ذات القلب الطيب كما كنت تسميني .

وأفتح لك قلبي الطيب !.. كنت تأتي إلى بيتنا كل يوم أنت وطفلتك لتبدِّد أحزانك بيننا . وراحت جراحي تلتئم ، وبدأت أتناسى الماضي فأشعر نحوكما بعطف وحنان .

وإذا أنت ذات مساء تناديني إلى الحديقة فتقول لي ببرود قتّال كأنك تتحدث عن قضية لا تعنيك :

ــ ما رأيك في أن نتزوج ؟... أنت تحبين ابنتي ، وأنا واثق بأنك سترعينها كأم حنون رؤوم ...

طعنتني كلماتك الباردة التي انتظرتها أمداً طويلاً !.. أتريد أن تتزوجني إذن من أجل أن أرعى ابنتك فقط ؟؟.. كدت أرفض طلبك ، ويا ليتني رفضت !.. جرَّبت أن أفعل فلم أستطع . لقد حال دون ذلك حبي العميق لك ، وتلهفي الطويل عليك . وظننتني أستطيع على مر الأيام أن أجد لي مكاناً في قلبك . واعتقدت أنني سأجده حتماً حين أمد عليك ظلي الحنون ، وأغمرك بحبي العميق . غير أنني فشلت !.. لقد شعرت منذ أيامي الأولى معك أنك أغلقت باب قلبك دوني ، كنت مصراً على أن تظل وفياً لها ، وأسير ذكراها ، تلك الدمية الفارغة ذات العينين الخضراوين اللتين كنت تراهما دائماً

في وجه طفلتها . كيف تمحى الذكرى من ذهنك والطفلة تذكي أوارها كلما رنت إليك بعينيها ؟؟

لقد فشلت كل محاولاتي !.. كنت تجرح كبريائي في اليوم الواحد مئة مرة دون أن تشعر !.. كانت طفلتك كل شيء في حياتك ، وكنت أنا لا شيء ، مجرد مربية للطفلة الغالية !..

أرأيت كيف جعلني تصرفك هذا أحقد على طفلة بريئة صغيرة فأتمنى لها الموت ؟! .. وحين جاء الموت من تلقاء نفسه ليبتلعها تركته يفعل ذلك .. تركته بلؤم وتشفٍ .. لم أهرع إلى إنقاذها فيا هول ما فعلت !.. اقترفت من أجلك جريمة .. جريمة فظيعة نكراء .. أنا مجرمة !.. مجرمة أثيمة .. كلمة تضج بها أعماقي فأكاد أجن ! .. كيف أستطيع تبرير ذلك أمام ضميري ؟ .. كيف أستطيع النسيان ومرآك وقد تشنجت ذراعاك على الجثة الصغيرة وأنت تحتضنها وتبكي ، والناس من حولك يحاولون انتزاعها منك !.. يبقى مرآك هذا محفور في دماغي أراه في كل لحظة .. أينما نظرت ، كيفما التفت .. إنه يعذبني .. يفتت كبدي .. يطرد النوم من عيني .. ثلاثة أيام مضت ما عرفت خلالها النوم أبداً !..

كان هذا كله يمر في خاطري ، وكان رأسي ما يزال مدفوناً في حجره وكانت أصابعه تتخلل شعري وتعبث به بحنان .

شعرت أنني أختنق ...

لم يعد أمامي سوى أن أفر منه بعد أن أصبح لي وحدي ! ..

لا بد لي أن أهرب من هذا الذي خلق ليكون جحيمي ...

لا بد لي ... لا بد لي !...

عاد إنساناً

شعر بوهن وفتور حين استيقظ من نومه ، فأزاح اللحاف عنه وظل ممدداً في سريره يبعثر حوله نظرات تائهة كليلة .

كانت الشمس ترسل أولى أشعتها فتخترق الشباك الوحيد في الغرفة ، وترسم من خلال الستارة المخرَّمة المسدلة عليه دوائر ذهبية راحت تتراقص مضطربة على الحائط أمامه كما تتراقص مضطربة في ذهنه ذكريات لأحلام ثقيلة مزعجة كانت تنتابه طوال ليلته تلك .

وكان ينبسط لصق ذاك الحائط الماثل أمامه فراش عريض اعتادت أمه أن تتقاسمه مع أخته الصبية .. كانتا ما زالتا نائمتين متدثرتين باللحاف . وقبالته تماماً كان يبرز من تحت اللحاف وجه أمه ، أبيض ممتلئاً يشيع فيه الرضا والاطمئنان ؛ مما أثار حفيظته عليها . ليتمتم بصوت خافت :

وماذا يهمها ؟؟...

كان جو الغرفة كثيف الهواء قاتماً كئيباً ، والفوضى تعم أرجاءها ، فأشياء سكانها الثلاثة كانت مبعثرة هنا وهناك . كان واضحاً أنه من العسير جداً أن تبدو منظمة ، أو خيراً مما هي عليه الآن وهي تضيق بما حشر فيها من أشياء . وعلى الرغم من أنه كان قد ألف هذا المنظر منذ ثلاث سنوات ، منذ مات أبوه واضطر هو لبيع البيت الذي ورثه عنه ليفي الديون التي خلفها له . ثم يستأجر هذه الغرفة الصغيرة في هذا الحي المتواضع لتضم الأسرة كلها . لم يسبق له أن شعر بضيقها ، وفوضاها ، ورائحتها العفنة كما يشعر اليوم .

ويرمي النائمتين الهانئتين فيها بنظرة تنم عن حنق وغيظ . إنهما منذ ثلاث سنوات تمتصان جهده كعلقتين شرهتين .. ويتساءل :

إلى متى سيظل كالثور المربوط إلى مداره ؟ يدور ، ويدور معصوب العينين ، وأيامه تمضي تافهة متشابهة تأكل شبابه دون هوادة أو رحمة !!.. لم يكن عسيراً عليه أن يجد تفسيراً لهذا السخط المفاجئ الذي بدأ يشعر به نحو أمه وأخته والذي لم يسبق له أبداً أن أحس بمثله نحوهما قبل اليوم . لو لم يكن مسؤولاً عن إعالتهما لدبَّر أموره على نمط أصلح مما هي عليه الآن .. ولكان استطاع أن يتزوج حبيبته دلال ؟... أول البارحة كان عرس دلال .. وكانت دلال الكوَّة الوحيدة التي ينبثق منها النور على حياته القاتمة فتزرعها نجوماً خضراً تشع منها الآمال الحلوة ، والأحلام العذاب ...

كان ينهض من فراشه كل يوم مع شروق الشمس ، فلا يشعر بضيق الغرفة ، ولا يرى فوضاها ، ولا يشم رائحتها العفنة ، كما يشعر اليوم ، كان شاغله الوحيد هو أن يسرع في ارتداء ملابسه ليخرج إلى الطريق . وكان شاغله هذا يعميه عما حوله ، كان يدمدم أغنية مرحة وهو يرتدي ملابسه ، إن عبّرت عن شيء فهي تعبِّر عن سعادته ، وعن رضاه عن واقعه . ويتناول فطوره كيفما اتفق ، ثم يترك لأمه ثلثي أجرته ليرتين كاملتين لتدبر بهما شؤون الأسرة كلها . ثم يخرج إلى الطريق نشيطاً فرحاً فيجد أمامه جارته دلال قادمة من أول الحارة ، كالزنبقة الندية في الحقل الجاف ، وكأنه كان معها كل يوم على ميعاد ، لم يتخلفا عنه أبداً ، وإن لم يتفقا عليه يوماً .

كانا يسيران معاً ، هو إلى مقر عمله ، حيث كان يعمل صانعاً في دكان حداد ، وهي إلى دار خياطة شهيرة كانت تعمل عندها مجّاناً مقابل أخذها عنها صنعة الخياطة .

كانا يتلكآن في سيرهما ، يثرثران ، ويضحكان جذلين لمجرد أنهما معاً . وقد يغتنم فرصة خلو الطريق من المارّة فيسحب دلال من يدها إلى عطفة ، أو إلى مدخل إحدى البنايات الخالية ، حيث يختلس من شفتيها الممتلئتين قبلات شرهة قد يظل أياماً كلما تذكرها تسري في أوصاله رعشة لذيذة ...

وذات يوم خُطِفت منه الزنبقة !...

خطفها مارد هرم ، جاء من بلاد بعيدة ، من بلاد الذهب الأسود . وما من أحد يدري كيف اهتدى المارد إلى الزنبقة ؟ كيف شم رائحتها من بعيد ؟.. كان مارداً في ماله ، مارداً في شكله ، خطف الزنبقة بين ليلة وضحاها بعد أن ملأ جيوب أبيها ذهباً ، وملأ جيدها ومعصميها لؤلؤاً وماساً . ثم حملها في سيارة حمراء لمّاعة كانت تملأ الحارة الضيقة المتواضعة التي ترعرعت فيها الزنبقة . لن ينسى موقفه مدى العمر حين فاجأته دلال بالخبر المشؤوم . ثم راحت تتوسل إليه أن ينقذها . كانت تقول له باكية :

إنني أكره المارد وأخشاه ، ولا أستطيع أن أرفض الزواج من رجل اختاره لي أبي . كيف أغضبه وأنا مقيمة في بيته ؟؟ سيضربني .. سيزوجني منه على الرغم مني مهما حاولت التمرُّد عليه !.. ولكنني أستطيع أن أهرب معك إلى حيث تريد .. إلى حيث تريد ..

تعال نهرب الآن .. ولنتزوج ونضع أبي أمام أمر واقع . وليحدث ما يحدث .. لن أخشى أحداً ما دمت معك أنت .. ليس أمامنا غير هذا الحل .. يا إلهي ما لك لا تجيب ؟؟..

وجد نفسه قد خرس !.. بماذا يجيبها وليس في جيبه إلا ليرة واحدة !..

خفض رأسه وانسل من أمامها دون أن ينبس بكلمة واحدة .

تركها تنشج على قارعة الطريق . مشى على غير هدى وهو يشعر أنه أذل وأحقر إنســان على وجه الأرض ! .. دلال تستنجد به فلا يستطيع أن ينقذها ؟!.. يتخلى عنها ؟ يتخلى عن أعز مخلوق لديه هكذا بمنتهى البساطة واللامبالاة ؟؟ !..

كان صوت نشيجها يخترق أذنيه ويدوي في رأسه ، وكلما ابتعد عنها راح الدوي يزداد أكثر فأكثر حتى يطغى على ضجيج الشارع كله ، فلا يسمع غيره ولا يلبث أن يخيل إليه أن الدنيا كلها تنشج .

ظل يسير ساهماً ويده في جيبه تمزق بعصبية الليرة اليتيمة القابعة فيها ، مزقها نتفاً صغيرة كأنه يريد أن ينتقم من كل شيء يسمى مالاً !.. أليس المال وحده هو سبب هذا البلاء كله ؟!

كان يتذكر ذلك وهو ما يزال ممدداً في فراشه ، ويشعر بتفاهة تصرفه الصبياني فيبتسم بمرارة ساخراً من نفسه .

إن ما استطاع أن يفعله كله ، هو أن يمزق الليرة الوحيدة التي كانت في جيبه ليظل بلا طعام طول نهاره ، ثم ينتابه الأرق طول الليل ، فإذا اغتالته غفوة حلم أنه يشنق أبا دلال على باب بيته ، ثم يقف مع أهل الحارة كلهم يتفرج عليه ، فيفرح ويشعر بارتياح الشماتة .

وتقطع أمه سيل أفكاره حين تستيقظ وتسأله وهي تنظر بهلع إلى وجهه الشاحب وعينيه الحمراوين :

ــ قم يا بني ، ألا تريد أن تفطر ؟

ويرد عليها بنزق ولهجة قاطعة :

ــ لا...

فتنهض الأم وتتقدم من سريره وتضع يدها على جبهته تلاطفه وتسأله بحنان :

ــ ما بك يا بني ؟؟ لَمَ لا تريد أن تأكل ؟.. ماذا تحب أن أطبخ لك اليوم ؟؟ ..

فيبعد يدها عن وجهه ، ثم يقذف فمه كلمتين جافتين :

ــ اطبخي سم الموت ...

وتشير الابنة إلى أمها بأن تصمت وتبعد عنه ، وكأنهما قد أدركتا بحدسهما الأنثوي أنهما سبب هذا الضيق الذي يجثم على صدره . فتتطامن كل واحدة منهما في زاوية ، وكأنها قد اقترفت ذنباً لا سبيل إلى التكفير عنه ...

وينهض هو متثاقلاً فيرتدي ملابسه صامتاً ، متجهم الوجه دون أن ينظر إليهما ، ثم يخرج إلى الطريق ، يسير إلى مقر عمله ساهماً ، يجر رجليه جراً وكأنه قد كبر خمسين عاماً . يشعر أنه شيء

تافه ... ، حقير ... ، ليس بإنسان أبداً ، شيء لا معنى لوجوده في هذه الدنيا ، ويتمتم بصوت مسموع :

ــ ما أنا إلا حشرة ، حشرة حقيرة ، تدب على هذه الأرض ساعية وراء رزقها لتسد رمقها فقط ! ...

ويصل إلى الدكان فيجد المعلم قد سبقه إليها على غير عادته . وإذا هو يناديه ويحييه مبتسماً وهو يقول له :

ــ جئت اليوم مبكراً لأني أود أن أتحدث إليك قبل أن يأتي أحد إلى الدكان .

قالها وفي عينيه الضيقتين تتراقص نوايا خبيثة :

ــ أنا يا بني ضقت بأولادي وأمهم ... أريد أن أعيش عيشة هانئة بعد أن وصلت إلى عمري هذا .. فإذا رضيت أن تزوجني من أختك فوزية فسأعطيك ألف ليرة .. ألف ليرة لك وحدك . لا أريد أن تكلف نفسك شيئاً . سأقوم أنا بجميع النفقات . وسأسكنها مع أمها لتستأنس بها في بيت جميل سيعجبها تماماً . كما تستطيع أنت ــ وقد أصبحت تملك ألف ليرة ، ولم تعد مسؤولاً عن إعالة أحد ــ أن تجد بنت حلال تتزوجها ، فقد آن أوان زواجك ... كان يصغي إلى حديث المعلم مبهوتاً ، يتأمله من رأسه إلى قدميه . ثم يقول له :

ــ سأفكر بالأمر .

قالها ببرود لم يتوقعه المعلم أبداً ، بعد عرضه السخي . ثم يدع المعلم في مكانه ويذهب إلى زاوية في الدكان فيخلع فيها ألبسته ويكوِّمها فوق بعضها ، ثم يرتدي ألبسة الشغل ، كان زميلاه في العمل قد وصلا ، فأوقد أحدهما الوجاق ، وراح الآخر ينفخ في الكير ، وجاء هو بقطعة حديد فوضعها فوق السندان ثم جاء بمطرقته وراح مع زميل له يطرقان قطعة الحديد ، بينما وقف المعلم بينهما يقلبها بملقط ويكيِّفها حسب ما يريد .

كان حين يرفع المطرقة ويهوي بها على السندان يشعر أن ساعده كليلة متعبة ، ويجد نفسه ينظر بين حين وآخر إلى المعلم فتراوده رغبة بأن يهوي بالمطرقة على رأسه الأصلع الذي كان يلمع من وهج النار بشكل يثير الاشمئزاز . لم يسبق له أن لاحظ قبح المعلم وبشاعته كما يلاحظهما اليوم . جسد دب ... ووجه قرد هرم ، يريد أن يتزوج من أخته فوزية ذات العنق الطويل ، والعينين الغزلانيتين ، والأسنان اللؤلؤية . الصغيرة الحلوة التي لم تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها بعد ! .. ويشعر أن حقده على أخته وأمه يتلاشى في تلك اللحظة ، بل ينقلب حباً وحناناً ..

لا .. لن يبيع فوزية لهذا القرد الدب ولو دفع له عشرين ألفا ، ثلاثين ألفاً .. لا .. لا .. لا يريد أن يحلم أحد أنه يشنقه على باب داره كما شنق هو أبا دلال . لا .. وألف لا ..

وتخرج لا من أعماقه ضخمة عملاقة .. وكأنها تتحول قوة هائلة في ساعديه ، فيرفع المطرقة ويهوي بها على قطعة الحديد فوق السندان فتتوهج منها النار ، وينعكس وجها على ساعديه المفتولين فيبدو لونهما أحمر كالنحاس ، وتسري القوة منه إلى زميله فيلين الحديد تحت ضرباتهما كما لم يلن أبداً ...

لتظل فوزية علقة تمتص جهده ...

وتتوالى ضربات مطرقته على السندان طاق ... طاق ...

سيقدمه لها راضياً حتى تتزوج بمن ترغب وتحب ...

لن يجعل منها ضحية كما جعل أبو دلال من ابنته دلال ، وتدمع عيناه ، وتتوالى الضربات طاق .. طاق ..

سيرفض بإباء عرض المعلم السخي ...

سيطرد من عمله حتماً ، إنه يعرف لؤم المعلم وخبثه ، ويعرف الحيل التي يلجأ إليها ليتخلص منه .

لن ينتظر حتى تتم هذه الخاتمة الوضيعة .

إن من له ساعدان قويان كساعديه لا يصعب عليه أن يجد معلماً لا يساومه على أخته ..

وفجأة يتوقف عن الضرب ، ويرمي المطرقة جانباً فيذهل زميله

والمعلم . لم يدع لهما فرصة للسؤال ، يتقدم من المعلم واضعاً يديه على خاصرتيه وهو يقول له بتشف وسخرية :

ــ معلمي أختي صبية حلوة ... لن ترضى أن تتزوج من عجوز كريه قبيح مثلك ..

فيبهت المعلم من هذه المفاجأة غير المنتظرة . وتفلت من زميله قهقهة عالية لم يستطع كبتها .

أما هو فدون أن ينتظر جواباً من المعلم يأخذ ألبسته ، يرميها على كتفه ، يخرج من الدكان ، يسير بخطىً ثابتة ، مرفوع الرأس ، ينظر باستعلاء يميناً وشمالاً ، وكأن الناس كلهم يعرفون قصته ، يشعر أنه قد أصبح لوجوده معنى ... ، لم يعد شيئاً تافهاً ، ولا حشرة حقيرة ، لقد عاد في نظر نفسه إنساناً ، وإنساناً ذا شأن ، وقيمة ، وكرامة ...

الحل الوحيد

فتحت عيني على صباح كئيب بارد ، شمسه شاحبة مريضة ، كانت تظهر حيناً وتتوارى أحياناً خلف غيوم شفافة أو داكنة .

لا أشعر برغبة في النهوض من السرير . أجلس فيه . أدير عيني في أرجاء الغرفة . تضايقني الفوضى التي تعمها . إنها تعطيها طابعاً مميزاً لغرفة طالبين شقيقين يعيشان في بلد غريب ، وكأن كل واحد منهما كان ينتظر من الآخر أن يرتبها وينسقها ، ولذا ستظل هكذا دائماً أبداً . يخيل لمن يراها أن كل ما حوته الخزائن والحقائب قد أخرج وتبعثر على المقاعد أو علق على الجدران والمشاجب .

كان هو واقفاً أمام المرآة يحلق ذقنه . يثير استغرابي أن يستيقظ اليوم قبلي على خلاف عادته . لم يلتفت إلي . لم يُلقِ علي تحية الصباح . لكم يغيظني تعاليه هذا ، وعدم مبالاته بالآخرين ، حتى بت أحقد عليه أحياناً . أظل في سريري أراقبه صامتاً . ينتهي من

حلاقة ذقنه . يظل برهة أمام المرآة يحدق إلى وجهه ويتأمله ذاهلاً . كدت أقول له بسخرية : ألم تشبع من صورتك . ولكني عدلت حين رأيتـه يتحوَّل عن المرآة ويروح يرتدي ملابســه . كان يبدو شـارد الذهن . إن أمراً هاماً يشغله . لم يخطر لي أن أسأله . ما اعتاد أن يشركني في معالجة أموره ومشكلاته على الرغم من أننا أخوين نعيش في غرفة واحدة وفي بلد غريب . كنت أشعر أن بيننا من الحواجز ما لا يوجد أحياناً بين الغرباء . كان لكل منا حياته الخاصة يعيشها كما يحب ويشتهي . ينتهي من ارتداء ملابسه .. وإذا هو يقترب من سريري وعلى فمه ابتسامة شاحبة . وفي عينيه نظرة حانية ما اعتدت أن أراها فيهما . ثم ينحني علي ويخطف من خدي قبلة .. يتملكني ذهول مفاجئ . ترتفع يدي بحركة لا إرادية فتمسح مكان القبلة كطفل صغير حين يتلقى قبلة من شخص لا يعرفه . وقبل أن أفتح فمي لأقول شيئاً ، يمد يده إلى جيبه ويخرج رسالة ويطرحها أمامي على السرير ويقول وهو يبتعد : رسالة من أمك وصلتني أول البارحة . ما يكاد يصفق الباب خلفه حتى يفتحه ثانية ويمد رأسه منه ويقول لي :

لاتفتش عن ساعتك أنا أخذتها البارحة من الدرج . وقبل أن أحتج ، أو أقفز من السرير لأستردها منه عنوة يسرع ويتوارى خلف الباب ويصبح في الشارع . أسكت على مضض . كما هو شأني معه دائماً . أفتح الرسالة . أقرأها وأنا متوتر الأعصاب . كلما أتلو كلمة

منها يزداد غضبي وتجهمي !.. وما أنتهي منها حتى أجدني مضطرباً حيران كفأر في مصيدة كلما تحرك تنغرز صنارة الطعم في حلقه . أزداد حقداً وموجدة على أخي .. إن أنانيته ، ولا مبالاته هما سبب هذا البلاء الذي تتعرض له أسرتنا الآن ! ..

تقول أمي في رسالتها : إن الدائن قد أرسل إليها إنذاراً لتخلي البيت في أول الشهر القادم لأن مدة الرهن التي عليه قد انقضت .

وتتساءل أمي بمرارة وألم : إلى أين سترحل مع أختيّ الصغيرتين وقد نفد ما لديها من مال ؟ ثم توجه اللوم إلى أخي في لين الأمهات وعطفهن لأنه هو الذي أوقعنا في هذه الورطة ، وكان ذلك حين أصر على رهن البيت ليتوفر له المال ومن ثم يستطيع السفر إلى دمشق ليتابع دراسته في جامعتها ، وليبرر عمله هذا يقترح أن ألحق به أنا حين أنهي دراستي الثانوية . لقد حاولت أمي جهدها كي تثنيه عن عزمه هذا فما أفلحت ، كنت أسمعها تقول له فيما تقول :

البيت يا بني ستر الأسرة .. لقد ذقت الأمرّين منذ مات أبوك فما خطر لي يوماً أن أبيعه أو أرهنه . لقد ورثته عن أبي ، وأبي ورثه عن جدي ، وأحب أن يرثه أولادي عني . ويروح أخي يقنعها بما فطر عليه من براعة وخبث حتى تستكين له . كان يقول لها : ما هي يا أمي إلا سنوات قليلة . سأبدأ العمل حين أنال شهادتي ، وما ينتهي العام حتى أفي الدين كله ، أو بعضه ، ويعود البيت ملكاً لك ، وكأن شيئاً لم يكن . غير أن أخي لم ينجح . فشلت خططه المرسومة ، لقد

رسب مرتين ! .. لأنه لم يكن جاداً في دراسته كما يجب أن يكون من قطع على نفسه عهداً لأمه مثل ذلك العهد . كان يسلك أحياناً طرقاً ملتوية ، ويرفض أن ينصاع لنصيحة واحد منا كأنه غير ملتزم بشيء . لقد نفد المال كله . وراحت أمي المسكينة تكافح بعزيمة جبارة لتطعمنا من نور عينيها . كأنني أراها الآن أمامي منحنية ـــ كما كنت أراها دائماً ـــ تخيط ملابس أنيقة لنساء مترفات بأجور زهيدة ثم تجمع ما تُحصِّله فما تأخذ منه إلا النزر اليسير ، ثم ترسل ما تبقى إلينا .

أخي يخفي عنها خبر فشله ، ويظل يبدِّد المال بلا مبالاة تثير حنقي . كأنه مال موروث جاءنا بلا جهد أو عناء . أعيد قراءة الرسالة ... ربما للمرة الخامسة والسادسة . وجه أمي يتراءى بين السطور . الحنان يضحك في عينيها الممتلئتين بالدموع !.. دائماً كان الحنان يضحك في عيني أمي حتى في أقسى الساعات وأشدها حلكة !...

مسكينة أمي !.. كم كانت تعتز بهذا البيت الذي توارثه جدودها حتى انتهى إليها ، ثم أضاعه أخي على أهون سبيل .

أشعر الآن بحنين عارم إلى هذا البيت العتيق . كنت فيما مضى أضيق بطرازه القديم ، لا سيما حين كنت أزور بيوت أصدقائي ذات الطراز الحديث . إن بناءه القديم فريد من نوعه ، وأصبح الآن في نظري يضفي عليه روعة وجلالاً تفتقر إليهما الدور الجديدة . ما

أحلى الدالية الهرمة التي تظلل باحته الواسعة التي تتوسطها بحرة ذات نافورة دفاقة . وما أروع قوس الإيوان العـالي الذي تتسـلقه ياسمينة بلدية ، سخية الزهر ، فواحة العطر ، كان يحلو لأمي أن تتفيأ ظلالها طوال شهور الصيف ..

مـا أصـعب أن تطرد عجوز من دار آوتها سنـين الطفولة ، والشباب ، والكهولة .

وأنا !.. ماذا أستطيع أن أفعل من أجلها ؟..

لا شيء ..

كم يؤلمني هذا اللاشيء !.. إنه يضعفني !.. يذلني !.. أشعر أنني مكبل اليدين ، وقد سمِّرت بهذا السرير القذر ..

إنها تمطر ... تمطر هماً وكآبة ...

نظراتي تتجه دائماً نحو الباب بترقب متوتر .. كأنني أوجس أنه سيفـاجئني منـه شيء ما .. شيء رهيب .. إلى أين ذهب ؟.. لماذا تركني وحدي مع الرسـالة الكئيبة دون أن يبادلني كلمة واحدة في صددها ؟ لماذا خطف مني تلك القبلة ؟.. أمره غريب هذا اليوم ، ماذا ينوي أن يفعل ؟ لماذا أخذ ساعتي ولديه ساعة ذهبية ثمينة ؟.. هل يحاول أن يجد حلاً ينقذ به البيت من الضياع ؟.. ولكن كيف يجد ذلك الحل ؟ .. وإذا لم يجد كيف يستطيع أن يواجه نظرات أمه بعد أن أضاع تراث آبائها الذي تعتزُّ به ، وشرَّدها دون مأوى !..

كم يشوقني أن أرى أمي الآن ، أن أمرِّغ رأسي على قدميها ، أن أحتمي بوهج حنانها . ولكن كيف يتسنَّى لي ذلك وليس لديَّ نقود تكفي أجرة الطريق إليها ؟!..

أخاف أن أبرح سريري . إنها ما تزال تمطر .. تمطر همّاً وكآبة !..

ضربات سريعة تتوالى على باب الغرفة . ضربات قلبي تفوقها سرعة .. أقفز من السرير .. أفتح الباب .. يطالعني وجه صديق لأخي ، بدا أصفر الوجنات أزرق الشفتين ، من ورائه ألمح شرطيين ، يتمتم الصديق ، فتضطرب على شفتيه كلمات لا أفهمها ... ينحِّيه الشرطي ويتقدّم مني بوجه جامد ، وينطق بكلمات تبدو لي وكأنها صادرة عن آلة تسجيل : إنا لله ، وإنا إليه راجعون !.. أخوك دِهسته سيارة .. أخذناه إلى المستشفى ، حاول الأطباء إسعافه دون جدوى .. هذه ألبسته ، لم نجد فيها إلا هويته وهذه الورقة .

أشعر أنني تحوَّلت إلى شيء جامد ، إلى صنم من حجر .. لم أفه بكلمة . أسمع الصديق يقول :

الورقة هامة جداً . إياك أن تضيِّعها ، إنها آخر وصل لشركة التأمين على الحياة .

بحركة آلية أفتح الورقة . تقع نظراتي على الرقم . إنه يساوي قيمة الرهن ... أشهق .. في مثل لمح البصر أفهم كل شيء . أخذ

ساعتي ليبيعها مع ساعته ويسدّد القسط الأخير . نظراته كانت تقول لي حين قبّلني :

أنا فرّطت . فخذ أنت حذرك .

أريد أن أبكي .. أشعر برغبة في البكاء لا تقاوم .. الدموع لا تسعفني .. كأنها جمدت في عيني ، وراحت تنكفئ في الداخل .. ما أحببت أخي كما أحبه الآن .

لا أدري لماذا أشعر كأنني مذنب ..

أطوي الورقة بتؤدة وأضعها في جيبي .

كان لا بد من تضحية .. تضحية كبيرة كي لا تطرد أمنا العجوز من بيتها العتيق .. كان هو الحل الوحيد .

ترى أيظل الحنان يضحك في عيني أمنا على الرغم من الفجيعة والدموع ؟؟...

وراء الحدود

ما لليل لا يمضي ؟؟.. كأن دقائقه ساعات ، وساعاته دهور .

قالت ذلك أم مصطفى وهي تتقلّب على فراشها ، تحاول أن تستجر النوم بالتسبيح كما نصحها ابنها أحمد ذات مرة حين شكت إليـه ما تعاني من الأرق . وتروح تعدُّ سبحتها الألفية عشرة آلاف مرة : (يا خفي الألطاف نجّنا مما نخاف) . حتى جفّ ريقها ، وكاد ييبس لسانها دون أن يغمض لها جفن .

كان النوم فيما مضى من الليالي يغتالها قبل أن تتم الألف مرة . أما في هذه الليلة الثقيلة البطيئة فما استطاع التسبيح أن يتغلّب على هواجسها السوداء التي راحت تمعن في تعذيبها !..

لا ... لن تستطيع أن تظل حبيسة غرفتها ممدّدة فوق فراشها كجثة لتريح قلبها المريض كما نصحها الطبيب . إنه لا يدرك ما تعانيه

أم ثكلى في ليل طويل ، ولا يصدِّق أنها ستختنق حتماً إذا ظلت ممدّدة كما هي الآن . وتقوم تجر هيكلها المتداعي ، تتلمس طريقها في العتمة حتى تهتدي إلى البـاب . تفتحـه على مهل . تخرج إلى فناء الدار ، تسير متعثرة ، مضطربة الخطى ، تتلفت يمنة ويسرة كلص حذر حتى تصل إلى السلم الذي يؤدي إلى السطح . وكان السلم مرتكزاً إلى حائط في إحدى زوايا الدار . وتروح تتسلقه بمشقة وجهد ، تقبض على عارضتيه بأصـابع متشنجة . ويشتد لهاثها فتحاول أن تكبته ما استطاعت . لقد أصبحت وهي العجوز القوية الشكيمة ، تخشى ابنها أحمد وترهبه .. فلو استيقظ الآن من نومه لأعادها إلى فراشها كما فعل البارحة ، وأول البارحة ، ولأعاد قوله لها بلهجته الجافة القاسية :

ــ أنت لن تستريحي حتى توقعينا في بلاء أو مصيبة !.. لو رآك الحارس اليهودي على السطح في هذه الساعة من الليل لشكّ في أمرك .. ولصوّب إليك رصاصة فأرداك وأنت في مكانك هذا .

وتجيبه وهي تضحك في سخرية مؤلمة :

ــ يا ليته يفعل يا بني !.. أأنا خير من الغوالي الذين أرداهم رصاص اليهود ؟؟ أأنا أحسن من أبيك أو أخيك مصطفى أو أختك زينب ؟! ..

ويرد عليها في نزق :

ــ ما فائدة هذا الكلام يا أمي ؟.. ما فائدته ؟.. ألم تشبعي

من ترداده سبع عشرة سنة دون جدوى ؟؟ ألم أقل لك ليس أمامنا إلا الصبر، الصبر ، الصبر ...

وينصرف من أمامها وهو يكرّرها بعصبية مخيفة .

وتصرخ بحدّة :

ــ أعرف ذلك ، ولكنه صبر على جمر !..

ويجيبها متأففاً وهو يتابع طريقه دون أن يلتفت إليها :

إن كان على ثلج أو جمر ليس أمامنا غيره ، ما أدري متى ستدركين ذلك ؟...

ويتهدّج صوتها وهي تحدّث نفسها بنغمة حزينة كأنها نواح :

ــ أما تكفي هذه السنين الطويلة لتميت الصبر فينا ؟ لتنشف الدماء من عروقنا ؟.. لتفرقع قلوبنا كما تفرقع بالونات الهواء ؟ إلى متى نتعلّل بالكلام والوعود ؟؟..

كان هذا يجري في (بيت صفافا) في القرية العربية التي يشطرها جدار من أسلاك حديدية يسمونه خط الهدنة ، فتقع مزقة منها في الأرض السليبة ، وتظل مزقة أخرى في الأرض العربية .

وكما شطرت (بيت صفافا) شطرين كذلك شطرت أسرة أم مصطفى فكانت هي وابنها أحمد في الأرض المحتلة ، وكانت ابنتها سلمى وزوجها في الأرض العربية .

وتصـــل أخيراً أم مصطفى إلى السطح منهوكة تكـاد تلفظ أنفاسها لما بذلت من جهد في الصعود . وتشعر أنها مريضة عاجزة أكثر منها في أي مرة أخرى . وتروح تزحف ببطء حتى تصـل إلى حافة السطح تماماً ، وهناك تقعد ، تضم ساقيها وترفع ركبتيها فتسند عليهما ذقنها ، وتهب نسمة باردة تتخلل ألبستها المهلهلة فتبعث في أوصـالها رعدة . لقد نسيت أن تتدثر بشيء ما عندما خرجت من غرفتهـا . وتخفي يديها تحت إبطيها لتدفئ أصـابعها التي بدأ يقلصها الصقيع . ويبدو هيكلها مكوَّماً فوق بعضه ككتلة سوداء لا تعرف ماهيتها .

كان الظــلام يلف قرية (بيت صفـافا) ، والسكون يخيِّـم عليها ، لا يعكره سوى صوت خطوات ثقيلة رتيبة ما تنفك تضرب الأرض بعـنف . مـا عرفت أم مصـطفى أكانت خطـوات الخفـير اليهودي ؟ أم الخفير العربي ؟. وترسل العجوز المقرورة نظرة من عينيها الكليلتين لتجوب القرية في القسـم العربي ، ثم تستقر على بيت لا تخطئه عيناها حتى في الظلام ، إنه بيت ابنتها سلمى .وكان بصيص من نور يشع من إحدى نوافذه ، وتتمتم الأم الملهوفة :

ــ لا بدّ أن الطــلق قد داهـم البنت هذه الليـلة . يا ويلي عليها !.. وإلا ما معنى أن يظل نور غرفتها مضاءً حتى الآن ؟؟..

وترهف سمعها فيخيل إليها أنها تسمع صراخ امرأة تعاني آلام المخاض . فيجف قلبها ، وتتمنى لو أنها صبية لكانت غامرت وقفزت

من السطح إلى الجانب الآخر ، إلى الأرض الحبيبة .. فالمسافة ضيقة جداً لا يتأتى عن قفزها أي خطر . ولكن يا حسرة !.. لم تعد تستطيع السير فكيف القفز ؟!..

ويعود تفكيرها إلى ابنتها ، منذ ثلاثة أيام لم ترها . كانت البنت تأتي كل صباح وتقف خلف الأسلاك وتتبادل مع أمها النظرات . لأن الكلام ممنوع بين سكان الطرفين . حتى الإشارات كانت ممنوعة أيضاً . وبعد لحظات كانت تنصرف كل واحدة إلى بيتها قانعة بهذه النظرات الصامتة ، فتطمئن الأم عن ابنتها الحامل . وفي آخر مرة رأتها فيها كانت البنت تبدو شاحبة الوجه ، تجر رجليها جراً ، وقد انتفخ بطنها انتفاخاً غير عادي ، لم يسبق أن رأت الأم نظيره على حامل غير ابنتها هذه ، مما أثار خوفها فقالت يومئذ لابنها :

ـــ يا أحمد لم يعجبني اليوم شكل أختك !.. تبدو البنت مريضة وأخشى أن تموت أثناء الولادة ...

ويرد أحمد قائلاً :

ـــ فال الله ولا فالك ، ما معنى هذا التشاؤم ؟ أهي أول أنثى تضع مولوداً ؟؟

ثم ينصرف عنها دون أن يدع لها فرصة لتتابع حديثها معه . ويغيظها جداً أن تجد أحمد غير مبال بماتقول له . كأن كثرة المصائب

قد بلّدت شعور الفتى ، وجعلت منه إنساناً غير مبال بكل ما يقع حوله !..

أين أحمد اليوم منه بالأمس ؟ يوم كانت الحماسة تتدفق من نظرات عينيه ونبرات صوته ؟

وتسكت على مضض وقد عوَّلت على أن لا تفضي إليه بهواجسها كما كانت تفعل .لأنها تشعر أنه لم يعد يشاركها همومها كما كان في الماضي . كأن حاجزاً قد قام بينهما . ألا يحق لها أن تخاف على ابنتها ؟ أينكر عليها هذا الخوف بعد المصائب التي توالت عليها من جرّاء النكبة . زوجها مات شهيداً ، ولم يبق لها من خمسة أولاد إلا أحمد وسلمى !..

ابنها البكر مصطفى زين شباب الضيعة مات يوم الخروج بعد أن أردى عشرة يهود كما يقول رفاقه . إنها لا تعرف له قبراً!.. يقولون إن على تخوم (بيت صفافا) حفرة تضم أشلاء عشرين شهيداً ، بينهم ابنها مصطفى . وزوجها الذي استشهد في عز شبابه قبل أن يتخطى الأربعين . أما ابنتها زينب ذات القامة المديدة والعينين الكحلاوين فمفقودة ما من أحد يعرف عنها خبراً . وأخشى ما تخشاه هو أن يكون اليهود قد خطفوها كما خطفوا الكثيرات غيرها !..

ابنها أحمد يقول :

ــ إن أهون الأمور هو أن تكون زينب في عداد الأموات !..

وتتنهـد أم مصـطفى وتزفر زفرة حرّى تشـعـر أنهـا تشــوي كبـدها . آه لو تستطيع أن تبكي ! لقد جفّت دموعهـا منذ زمن بعيد ، تلك الدموع التي كانت ترطِّب سعير قلبها كلما ألحَّت عليها الذكريات .

ترى أين سعيد ؟ أحي هو أم ميت ؟؟.. ابنها الصغير الذي كان في حدود الرابعـة عشرة حين تشرَّد مع آلاف المتشرِّدين ، لم تسمع عنـه خبراً منذ زمن بعيد ، لقد تلقت منه ذات يوم رسـالة بواسطة الإذاعة ، ثم انقطعت أخباره فما تدري تحت أي سماء هو الآن !..

أما ابنتها سلمى ، أصغر أولادها فقد أرسلتها مع عمها يوم الخروج ، وكانت طفـلة في الخـامســة من عمرها . لم تستطع أم مصطفى أن تخرج لأن ابنها أحمد حمل إليها يومئذ جريحاً فاقد الوعي ، حمله رفاقه ودماؤه تنزف ، فاضطرت أن تبقى إلى جانبه فأغلقت بابها وجلست قربه تمرِّضـه وتعنى به ، وتبذل أقصى جهدها لتبدو أمامه صامدة جلدة . ثم داهمهما اليهود فذاقا من الأهوال ما ذاقا .. وحين شُـطرت قريتهـا (بيت صفـافا) وامتد عليهـا هذا الخط الوقح من الأسلاك الحديدية الذي أطلقوا عليه خط الهدنة ، صار أخو زوجها أبو ســليم يأتي بين حين وآخر ليقف خلف الأسـلاك حاملاً على ذراعيه ابنة أخيه سلمى لتراها أمها .

كانت الأم تقف في الطرف المقابل من الأرض المحتلة تنظر ملهوفة إلى طفلتها اليتيمة ، وتتلقف دموعها وتبتسم في آن واحد كي لا تحزن الطفلة وتتألم ، فقد كانت على الرغم من صغرها تدرك حراجة الموقف فتنظر إلى أمها بعينين متسعتين هالعتين ، دون أن تنبس بكلمة . وكان عمها أبو سليم في أكثر الأحيان يصطحب معه أحد أصدقائه ويحدّثه بصوت عال كي يسمع امرأة أخيه حديثه فتطمئن على ابنتها :

ــ أقسم بدم الشهداء الغالي أن لا فرق بين سلمى وأي بنت من بناتي .

ثم يروح يداعب الطفلة ويقبلها ، ويقول : إن شاء الله حين تكبر سلمى سأزوجها من ابني سليم عندما يعود من غربته . ثم تنصرف أم مصطفى مطمئنة بعض الشيء على طفلتها ، لكن قلبها يتلهف على قبلة منها أو لمسة .

وتمضي الأيام ، وتمر السنون ، وخط الهدنة قائم ، وتكبر سلمى ويعود سليم ويتزوجان ، وخط الهدنة ما يزال قائماً يشطر (بيت صفافا) شطرين ، وتقف أم مصطفى يوم العرس خلف الأسلاك وتمر ابنتها أمامها تخطر بثياب العرس فتزغرد أم مصطفى ويخرج صوتها غريباً كأنه خليط من الزغردة والولولة فيبكي كل من يسمعها !..

وما يمضي العام حتى تحمل سلمى ، وها هي ذي تعاني آلام

المخاض وأمها بعيدة عنها .. وتقول أم مصطفى في نفسها وهي مكوَّمة على السطح :

ــ ترى لو رزقت سلمى صبياً أيخطر لها أن تسميه مصطفى كاسم خاله عساه يكبر ويثأر له .

ثم ترهف سمعها وهي تستعرض هذه الصورة المروِّعة في ذهنها فيخيل إليها أنها تسمع صراخاً يشتد ويشتد ، ثم يخفت فجأة ، ثم يعود فيشتد ... إنها صرخات الألم التي ترافق الطلقات الأخيرة حين يخرج الجنين من أمه إلى النور .. ويخفق قلبها ، ويشتد وجيبه ، كأنه سيقفز من بين جنبيها ، فتضغط عليه بذراعيها ، ويتقلص جسمها كله ، وتشعر أن الهواء يشح على السطح ، فتحاول أن تعب منه ما تستطيع فما يشتفي قلبها بل يطلب المزيد ، وتزداد ضرباته حتى تسمعها بأذنيها ، ويصرفها عن التفكير بنفسها بصيص النور الذي يشع من نافذة سلمى . فقد رأته يكبر ويكبر حتى يصبح هالة وضاءة تتقدم منها على مهل ، وإذا هي تحوط طيف إنسان .. وتقترب الهالة منها ، ويقترب الطيف ، وتحدق إليه فإذا هو ابنها مصطفى ... هو بعينيه .. والله مصطفى بشحمه ولحمه !.. وتشتد ضربات قلبها .. كذبوا ما مات مصطفى .. ها هو ذا يعود إليّ حاملاً على ذراعيه طفلاً صغيراً لا شك أنه ابن سلمى .. وتشعر أن أعصابها المشدودة بدأت تسترخي ، وأن خدراً لذيذاً راح يسري في جسمها كله ، وفرحة ترفرف في قلبها فتزداد ضرباته تتابعاً ، والهالة ما تزال تقترب منها ،

حتى يصبح مصطفى أمامها يبتسم لها ابتسامته المشرقة . حاولت أن تمد يديها إليه ، أن تتشبث به ولكنها لم تستطع ...

كأن لم يعد لها يدان !...

وتبتعد الهالة عنها ، فيهلع قلبها كأنه يسقط في هاوية لا قرار لها . وتفتح فمها وتصرخ ، مصطفى .. من أعماقها ولكنها لم تسمع صراخها ..

لم يعد لها صوت أيضاً !..

وتعود الهالة ، فتقترب منها ، ثم تبتعد ، ثم تتراقص ، ثم تختلط فيها الصور .. لقد عاد الطيف يحمل وجه زوجها هذه المرة ، ثم ابتعد وعاد بوجه زينب ، ثم بوجه سعيد ... لم تعد تملك سوى أن تحدق إليه ، وتحملق به دون أن يطرف لها جفن .. وضربات قلبها راحت تخفت وتتباعد .. والصور تتلاشى وتختلط ببعضها ويغشاها الظلام شيئاً فشيئاً ، وهي ما تزال تحملق ، وتحدق حتى يعم الظلام كل شيء !..

قضيـــة خاســرة

ـــ سيدي القاضي ! أنا امرأة فقيرة ، مسكينة ليس لي من سند إلا الله وأنت . الله يديم عزك يا سيدي ..

ويختنق صـوتها بالبكـاء ، فتجرض بريقهـا ، وهي تكفكف دموعها .

ويتفرس القـاضي بالشبح الماثل أمامه ، فيرى عجوزاً طويلة عجفاء ، تبدو صلبة العود على الرغم من شيخوختها ، ملتفة بملاءة سوداء ، وقد أسفرت عن وجه لا لون له ، حفر فيه البؤس أخاديد عميقة . أما عيناها فقد غارتا في محجريهما ، حتى لتبدو لمن يراها من بعيد وكأنها عمياء .

ويقول القاضي بلهجة فيها رفق وودّ :

ـــ لا عليك يا خالة .. ما هي قضيتك ؟

وترد عليه بحرقة وانفعال :
ــ سـرقوا مالي يا سيدي القـاضي !.. الله يقتص منهم ... أتدري من أين سرقوه ؟؟ سرقوه من جوف ابني .. من أحشائه !.. لا تستغـرب قولي يـا سـيدي .. إني والله لا أكذب عليك . ويصرخ القاضي دهشاً : من أحشائه ؟...

ويستغـرب النـاس ويضحك بعضهـم فتضج القـاعة ، حتى القاضي نفسه يخفي ابتسامة مراعاة لهيبة المنصب . ويحملق بالعجوز ويتفـحّـص وجهها ، فقد خيل إليه أنها مجنونة .

أما هي فراحت تنظر في وجوه الناس مبهوتة متعجبة تتساءل في سرها ما يضحكهم يا ترى ؟؟

لم يخطر لها أبداً أن مصيبتها الفادحة قد تثير الضحك .

يقول القاضي بلهجة جدية :
ــ احكي قضيتك يا امرأة ولا تخفي عني شيئاً .
ــ وحياة الكعبة الشريفة يا سيدي القاضي لن أخفي عنك كلمة واحدة :

نحن ناس فقراء ، نشتغل لنعيش . أنا كنت أعمل غسالة ، وقد انقطع رزقي منذ اقتنى الناس الغسالات الكهربائية ، الله يقطع رزق من أدخلها هذا البلد . وكان ابني ، آه يا حرقة قلبي عليه ... يشتغـل حمـالاً . أمـا زوجه فامرأة بليدة ما تستطيع أن تجني شيئـاً

لتساعد زوجها ، وكيف تستطيع أن تشتغل وهي من يوم دخلت بيتنا إما حامل ، وإما نفساء !.. إن الله يا سيدي القاضي يقول للغني كل عام : خذ هذا الكيس . وقد يكون الكيس مملوءاً ذهباً أو فضة . ويقول للفقير : خذ هذا الابليس ، وقد يكون لهذا الابليس فم لا يشبع !.. وقد رزق ابني من هؤلاء الأبالسة ستة لا يعرفون الشبع !.. كان أبوهم ، يا نار قلبي عليه !.. يعمل من أجلهم ، وأجل أمهم من الصبح إلى المساء . يحمل على ظهره ما يعجز البغل عن حمله . وذات مرة التوى ظهره تحت ثقل صندوق من الحديد ، فذهب إلى الطبيب ليصف له دواءً ، قال الطبيب :

لم تعد تصلح حمالاً فتّش عن عمل آخر ..

ويعود ابني يائساً ما يعرف كيف يدبّر أمره . نحن يا سيدي تسعة اشخاص في رقبته ما لنا كاسب غيره ، وهذا ليس بقليل !.. رأيته يبكي من ضيقه !.. بكاء الرجال صعب يفتّت الكبد ! .. عندئذ اضطررت أن أعترف لابني أنني أملك قطعة أرض صغيرة في قريتي البعيدة في الشمال ، كنت قد ورثتها عن أبي . وكتمت خبرها عن ابني . خفت أن يبيعها فيذهب ثمنها هدراً . كنت قد وضعت ورقة الطابو في حجاب وعلقته في عنقي ؛ وتركتها ليوم شدة ، وقد جاء يوم الشدة . فرح ابني كثيراً عندما حدثته عنها ، فقد ظن أنه وجد لضيقه مخرجاً . لم ينم والله ليلتها أبداً . كان يسألني عن الأرض في كل لحظة ، عن قيمتها ، ومساحتها ، وعمَ ينبت فيها . وما يصبح

الصباح حتى نسافر أنا وهو لنبيع قطعة الأرض . ضيعتي بعيدة يا سيدي ، ظللنا في السيارة من الصبح حتى نصف الليل . لا أريد أن أطيل عليك ، بعنا الأرض بأبخس ثمن ، بعشرين ليرة ذهبية . وهي والله تساوي خمسين !.. أختي باعت حصتها بخمسين .. ولكن الشاري استغل حاجتنا إلى البيع . الله لا يبارك له .. وضعت الذهبات في كيس وأخفيته في صدري . كان ابني يحدثني طول الطريق عما يريد أن يفعل بالمال :

خمس ليرات ديون . ليرة لكسوة المرأة والأولاد ، أربع ليرات أجرة دكان . عشر ليرات ثمن البضاعة . فاكهة وخضار وما يلزم الدكان من عدة . ثم يقول لي :

ـــ ستقعدين أنت في الدكان حين أذهب إلى السوق كل صباح لأتبضّع . وسنربح يا أمي كثيراً . جارنا الخضري عمَّر بناية من وراء دكانه الصغيرة . وسيشبع الأولاد ، سآتيكم كل مساء بما يتلف في الدكان من فاكهة وخضار .

ويطول الطريق علينا . تعطلت السيارة ثلاث مرات ، وكان المطر يندلق من السماء كالأنهر . كدنا نموت من البرد . وإذا أنا أسمع أحد الركاب يقول لزميل له :

ـــ وصلنا الآن إلى مكان الخطر . الله يسلمنا منهم .

سألته : من هم يا أخي ؟ قال :

ـــ اللصوص .. وقطّاع الطرق .. كثيراً ما يخرجون من بطن هذا الوادي الذي نمر به الآن ، ويوقفون السيارات ويسلبون الركاب كل ما يملكون .

هلع والله قلبي من كلامه . كان كالبوم بشّرنا بالشؤم . وما يتم كلامه حتى نسمع صـوت الرصـاص يلعلع في الفضـاء . وتتوقف السيارة فجأة ، ويصعد إليها رجلان ، ثم يسحبان سائقها وينزلانه إلى الأرض . فلم نشك أبداً أنهما من اللصوص .

ويقترب ابني مني ويوشوشني قائلاً :
ـــ أخرجي الذهبات دون أن يشعر بك أحد . وتعالي نبلعها أنا وأنت . هذه خير وسيلة لإنقاذها ، وإلا فقدناها .. المال عزيز يا سيدي ، كالروح تماماً .

وكان معي ابريق مليء بالماء . ناولني ابني ليرة ، وحاولت أن أبلع ليرة ، لكني لم أستطع ، شرقت وكدت أختنق .

قال لي ابني :
ـــ لا عليك يا أمي سأبلعها أنا وحدي .

ورحت أناوله ليرة ، ليرة ، وهو يبلع حتى بلغ عددها العشرة . وإذا الكيس يفـرغ ، فكـدت أُجن ، ومـا لبثت أن عرفت أنني قد غلطت ! .. كنت أحمل كيساً آخر فيه عشر فرنكات فقط وهي كل

ما كان معي من النقود عدا الذهبات . ويضحك الناس ويقول أحدهم بصوت مسموع :

ــ الله لا يعطيك عافية على هذه الغلطة الكبيرة .

وترد العجوز وهي تتنهد :

ــ ما ذنبي يا بني ؟ كنت والله أرتجف من الخوف ، وكان الظلام حالكاً ، وكنت لا أعي ما أفعل !.. ولا يمكن أن أفرق بين الليرة والفرنك باللمس قلت لابني إنني غلطت ، وقد ناولته الفرنكات عوضاً عن الليرات . سب ديني . يا ربي اغفر له وسامحه .. كان والله ديِّناً يصلي ويصوم ، وما يكفر أبداً ، وما شتمني مرة . كظم غيظه وقال لي :

ــ هيا أسرعي ناوليني الذهبات الآن .

ورحت أناوله ليرة بعد ليرة وهو يبلعها بسرعة عجيبة حتى بلغ عددها العشرين . أحلف لك يا سيدي القاضي أن ابني قد بلع عدا العشر فرنكات ، عشرين ليرة ذهبية أم حصان لم تنقص واحدة . حين انتهى ابني من بلعها كلها ، عاد السائق ومعه رجلان يحملان آخر جريحاً . فهمنا فيا بعد أن الرجلين ما كانا من اللصوص أو قطاع الطريق . إنما خشيا ألا ينتظرهما السائق ريثما يصل رفيقهما الجريح ، فاضطرا أن ينزلاه من السيارة كي لا يغدر بهما .

قال ابني :

ـــ لا تهتمي يـا أمي ، هذه قسمتنـا . غداً لا بد أن تخرج الليرات من جوفي . والفرنكـات أيضـاً ، وسـأعيدها لك كاملة . الفرنكات طبعاً .. وضحك . ونصل إلى البلد ، ويمضي يوم ويومان وثلاثة ولم تخرج الليرات ، ولا الفرنكـات من جوف ابني !.. وبدأ يشعر بآلام كأنها تمزق أحشاءه . كان إذا ربَّت على خاصرته اليمنى نسمع خشخشة النقود . ويصبح المسكين تسلية أولاده ، واحد رائح وآخر آت يربِّتون على خاصرة أبيهـم ليسمعوا الخشخشـة ثم يفرون ضاحكين .. صغار ما يدركون شيئاً .

وتضـج القــاعـة بـالضحك مرة أخرى وتتحول العجوز ثم تستأنف كلامها :

صار ابني يا سيدي القاضي يخشى الخروج من البيت ، لا سيما في الليل ، لأن الخبر كان قد شاع في حارتنا وربما تعقّبه أحد أولاد الحرام ، فإذا سنحت له فرصة بقر بطنه ليسرق منه الذهبات .. أولاد الحرام كثار يا سيدي والفقر كافر !.. ويضطر ابني أخيراً أن يذهب إلى المستشفى ويعرض نفسه على الأطباء ..

قـالوا له لا بد من إجراء عمـلية جراحيـة وإلا فحيـاته في خطر !.. أذعن لأقوالهم . ودخل يا نار قلبي عليه إلى غرفة العمليات على رجليـه مثـل الحصـان ، طول وعرض وصحة . وبعد سـاعتين أخرجوه لي ميتاً .

طـار عقـلي من راسـي !.. أنا والدة يا سيدي ، وقد رأيت وحيدي جثة هامدة !.. نسيت أن أسأل عن الذهبات !.. بعد ثلاثة أيام رأيت أولاد ابني حولي يبكون من الجوع .. قمت وجررت نفسي إلى المستشـفى وهنـاك طالبت بمالي ، وإذا هم يدفعون لي عشـرين فرنكاً ، وعشر ذهبات فقط .. قالوا لي : هذا ما وجدناه في جوف ابنك ... أقسم لك يا سيدي القاضي إن الفرنكات كانت عشرة ، والذهبات عشرين انكليزية أم حصان كما قلت لك . قد فحص ابني كل واحدة منها على الوجهين قبل أن يقبضها ، ودفعها إلي واحدة إثر واحدة ، وأنا وضعتها في الكيس ، وعلقته في عنقي ، ثم أخفيته في صـدري إلى جانب كيس الفرنكات . ثم بلعها ابني كلها ونحن في السيارة . فكيف انقلبت الفرنكات في جوفه إلى ذهبات ، والذهبات إلى فرنكات ؟؟؟ ..

أنا يا سيدي القاضي امرأة مغلوبة على أمري فقيرة ومسكينة وعندي أيتام ، وليس لي من سند سوى اللهوأنت ، الله يديم عزك ..

سيدي نسيت أن أقول لك أن امرأة ابني وضعت بعد موته بأسبوع واحد توأمين بنـات ، لقد أصبحنـا عشرة . عشرة أفواه لا تعرف الشبع ، وأنى لها أن تعرفه ؟؟ !..

الكنـــز

صحوت من نومي على رنين الهاتف المتواصـل ، ولما تشرق الشمس بعد . فقفزت من فراشي لأرد على هذه المخابرة غير المنتظرة ، كما قفزت إلى ذهني في الحال هواجس مخيفة .. خبر سيئ تحمله إلي هذه الآلة السـوداء في هذا الصباح الباكر . وبدت لي مخيفة مقيتة كنذير شر . وبيد مرتجفة رفعت السماعة إلى أذني فتناهى إلى سمعي صوت مضطرب يقول :

ــ تعالي إلينا الآن ، أرجوك أن تسرعي ، لقد وقعنا في مشكلة مخيفة !.. لا أستطيع أن أفسر لك شيئاً على الهاتف .

ويغـلق الخط دون أي كلمة مجاملة ، مما يوضح لي إلى أي مدى كانت المتكلمة مضطربة النفس . وقد عرفتها منذ نطقت أول كلمـة . كانت قريبـة لي تسكن وأخت لها في بيت ناءٍ عن بيتنا . ووجدتني ملزمة بتـلبية طلبها . وتسـاءلت : ما عسـاها تكون تلك

المشكـلة المخيفة التي داهمت في هذا الصباح المبكر قريبتيَّ الأختين العانسين الموسوستين ؟؟.

ولا بدَّ لي أن أعترف أن ما من شيء كان يثقل على نفسي كزيارتهما وعلى الرغم من ذلك كنت أزورهما كل أسبوع مرة ، لأن أمهما كانت قد أوصتني وهي على فراش الموت بألا أنقطع عن زيارة ابنتيهـا ، وأن أرعاهما جهدي .. وكانت أمهمـا أعز قريبـاتي علي ، تربطني بها أواصر صداقة ومودة ، ولذا آليت على نفسي تنفيذ وصيتها مهما سبّبت لي من إزعاج . فليس أعمق تأثيراً في النفس من وصية إنسان عزيز وهو على فراش الموت .

كانت كبرى الأختين في صباها بارعة الجمال ، وعلى نصيب وافر من الثقافة والذكاء . وكانت قد خطبت إلى شاب جميل أحبته وأحبها حباً جامحاً . وقبل أن يتم زواجهما بأيام قلائل قتل الشاب في حادث سيارة ، فحزنت عليه الفتاة حزناً عميقاً صامتاً . وعزفت عن الزواج على الرغـم من كثرة خطـابها . ومع الأيام استحـال حزنها العميق الصامت إلى وسواس شديد ، فأصبحت تعتقد أنها مريضة مرضاً خطراً ، وأن أحداً من الأطباء ـــ على كثرة ما استشارتهم ـــ لم يستطع أن يكتشف مرضها الخطير هذا . وعلى الأصح لم يستطع أن يـنزع هذا الوهم من رأسهـا . كانت تلازم سـريرها دائماً أبداً . وكانت تُرى إلى جانب سريرها طاولة صُفت عليها أنواع منوعة من

الأدوية . وكان لا بد لها أن تقص على كل من يزورها حكاية مرضها الطويلة ، فتعدّد له أسماء الأطباء الذين عالجوها ، وطريقة فحصهم لها . ثم تتناول من الطاولة التي إلى جانبها كل دواء على حدة وتريه الزائر ، وتذكر له ثمنه الباهظ ، ثم طريقة استعماله ، ثم عدم جدواه . وكانت هذه الحكاية ذاتها تتكرر في كل زيارة وتطول مرة إثر مرة ، حتى سئم حديثها هذا أعز صديقاتها ، وأقرب أقربائها فانقطعوا عن زيارتها . وأحياناً كانت تغتنم فرصة غياب أختها حين كانت تقوم لتعد القهوة للزوار ، فتشكو لهم تلك الأخت وما تسببه لها من إزعاج . لا سيما حين كانت تهرب الخادمة لكثرة ما تجور عليها ، وترهقها بالعمل ، وكانت تنهي شكواها بقولها :

ــ أيجوز أن أتحمل أنا المريضة المسكينة سوء خلق أختي هذا ؟ وقد أظل في سريري مهملة من أجلها !.. أنادي فما من أحد يرد علي ، أو يلبي لي طلباً ، حتى تجود هي علي ، وقلما تجود !.. لأن ما من خادمة تستطيع أن تتحمل العمل في بيتنا وأختي على ما هي عليه من الوسواس وسوء الخلق .

وكان هذا صحيحاً . فقد ابتليت الأخت الصغرى بوسواس أيضاً منذ ماتت أمها . وكان وسواسها ينصب على تنظيف البيت وترتيبه ، وراح يزداد هذا الوسواس كلما تقدّمت بها السن حتى أصبح هوساً . فكانت تبدأ العمل كل يوم مع الخادمة في تنظيف البيت منذ الصباح الباكر ، أي منذ تبرح سريرها ، لا تكل ولا تمل حتى تعود

إليه منهكة في المساء . وكانت أختها تسخر منها أحياناً فتقول لزوارها على مسمع منها :

إن لأختي ثلاث صديقات لا يفارقنها أبداً :
المسحة ، والمنفضة ، والمكنسة .

وقد وصل بها الهوس إلى حد أصبحت فيه لا ترغب أن يزورها أحد ، كانت تجلس أمام الضيف تراقب حركاته ، وكأنها تنتظر انصرافه لتأتي بالمنفضة فتنفض مكان جلوسه ، ثم تمسح آثار أقدامه ، ولذا كان من المستحيل أن تتحمّل العمل معها خادمة مهما أوتيت من الصبر والجلد على العمل . وكانت هذه الأخت الصغرى عاثرة الحظ منذ خلقت ، فقد انصرف عنها الناس إلى أختها الكبرى التي كانت تفوقها جمالاً وذكاءً . وما سمعت أنها خطبت لأحد قط . وعندما كنت أنصرف من زيارتهما كان لا بدّ لها أن تستوقفني خلف الباب لتشكو إلي ما تعانيه من أختها المريضة . وتروح تقسم لي أن أختها سليمة معافاة ، وإنما تتصنع المرض لأنها أنانية كسلى ، لا يروق لها إلا أن تتمدد طول النهار فوق السرير وأن تستغل قوى أختها التي ستموت حتماً قبلها من التعب وشدة الإرهاق . وكانت أحياناً تبكي بحرقة وتناشدني أن أجد حلاً لمشكلتها المعقدة . وأنى لي أن أجد ذلك الحل ؟؟

كنت حين أنجح بالتملص منها ، وأخرج من البيت أجدني

أتنفس بارتياح لأن الزيارة المرسومة علي قد انتهت ، وأشعر كأن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهلي ، ولا أكون مغالية إذا قلت إنني كنت منذ تلك اللحظة أحمل همّ الزيارة التالية .

ذات مرة بعد أن انصرفت من زيارتهما وابتعدت خطوات عن دارهما تصادف أن اقتربت مني صبية ريفية على وجهها مسحة من جمال ووداعة ، وسألتني بشيء من الخجل إن كنت أعرف أسرة ترغب في خادمة ، على شرط ألا يكون في الأسرة رجال .

وأعجب من طلبها هذا ، وأقدر أن هذه الصبية قد سبق أن أسيء إليها من رجل كانت تعمل في بيته . وكثيراً ما يحدث هذا للخادمات أمثالها . وأجدني أقودها من فوري إلى دار قريبتيّ . فإذا هي تتفق معهما على العمل دون أي شرط تشترطه عليهما . ويبدو شيء من الاطمئنان والرضا على وجهها وكأنها قد وجدت عندهما ضالتها ، مما أثار شفقتي عليها ، وشعرت بوخز الضمير ؛ لأنني في الواقع قد غششت تلك الصبية الوديعة حين قدتها إلى بيت ستلقى فيه شقاءً وعنتاً . وقلت في نفسي : لا بدّ لها أن تفر منهما كما فرّت الكثيرات قبلها .

وأُدهش حين أعود بعد أسبوع لزيارة قريبتيّ فأجد الفتاة ما تزال تعمل عندهما . ولأول مرة أسمع منهما ثناءً على خادمة . وتمر الأسابيع والشهور والفتاة دائبة على عملها دون أي تذمر أو شكوى ،

مما جعلني أعجب بحسن خلقها ، وصبرها الجميل . إلى أن جاء اليوم الذي تلقيت فيـه الهاتف من إحداهما فأسرع إلى نجدتهما فإذا هما تنتـظـراني خـلف البـاب وقد بدا عـليهمـا كثـير من الارتبـاك والاضطراب . وتبادرني الصغرى قائلة :

ـــ الخادمة التي جئتنا بها فرّت اليوم ، بعد أن وضعت طفلاً تركته عندنا ، ولا ندري أين هي الآن ..

ذهلت لهذه المفاجأة وقلت :

ـــ فاطمة وضعت طفلاً ؟؟.. هذا غير معقول ، وكيف لم تكتشفا أنها كانت حاملاً ؟..

قالت الكبرى :

ـــ لم يبد عليها شيء من هذا أبداً . كانت الخبيثة تصر على ألا تخلع ألبستها الريفية الفضفاضة لتخفي جسمها كله ، وفي الآونة الأخيرة راحت تشكو لنا من انتفاخ في بطنها ادعت أنه مرض يلم بها من حين لآخر ، وقد اعتـادت أن تشفى منـه دون أن تتنـاول أي علاج ، حسب قولها ، يا لها من كذّابة ، خائنة !..

قالت الصغرى :

ـــ سمعت اليوم عند الفجر صرير بابنـا وهو يغـلق . فرابني الأمر ، فنهضت من سريري وناديت فاطمة ، فاطمة .. ولما لم يجبني أحد هرعت إلى غرفتها فلم أجدها ، وإنما رأيت منظراً كاد يغمى علي

من هوله . فما كان مني إلا أن أسرعت إلى الهاتف واستنجدت بك . تعالي انظري : وقادتني من يدي إلى غرفة صغيرة قائمة على السطح ، ما كدت أقترب منها حتى سمعت بكاء الطفل كعواء جروٍ صغير في ليلة باردة . ولما دخلت الغرفة اقشعرّ جسمي من هول ما رأيت .. كانت الدماء تملأ الفراش واللحاف والشراشف وتفوح منها رائحة تبعث على القيء . وأشياء كثيرة مبعثرة هنا وهناك ، وكلها كانت وكأنها تروي مأساة ليلة مريعة . إن للأشياء أحياناً قدرة عجيبة على التعبير . أطراف الشراشف كانت ممزّقة ، مما يدل أن المسكينة استعانت بتمزيقها على كبت صرخات الألم حين داهمتها الطلقات الأخيرة . وخيط من الدم يمتد من عتبة الغرفة ويتعرّج على الدرج حتى باب الدار حيث تختفي آثاره بين تراب الدرب . ويقفز إلى ذهني فجأة قول الفتاة حين صادفتها أول مرة على قارعة الطريق :

ــ أريد أن أخدم أسرة ليس فيها رجال .

الآن وضح السر الذي من أجله تحمّلت تلك الصبية المسكينة قريبتيَّ الموسوستين اللتين لا تحتملان أبداً .

ترى أين يمرح الآن أبو هذا الطفل ؟؟.. أوَكانت هذه الأم المسكينة تترك طفلها بين يدي مجنونتين لو لم تكن مهدّدة بالفضيحة ، أو القتل ؟.. وأتصورها وهي تودّع طفلها بنظرة فيها الهلع ، والحنان ، والشعور بالإثم ، ثم تفر منه والدماء ما تزال تنزف منها ، وقد تركت على الأرض آثاراً بينة !..

يمر هذا كله في ذهني كلمح البصر ، وإذا مرأى الطفل يطرد من رأسي كل الأفكار ، ويتمركز ذهني فيه وحده ، كان ما يزال يعوي فوق اللحاف ، وقد ازرقّ جسده العاري ، وراح يختلج كله ، يمد يدين مرتجفتين كأنه يستجير بنا . وكان ما يزال عالقاً بخلاصه . وما أدري كيف أسعفني حرج الموقف بجرأة خارقة فقمت بعمل لم يسبق لي أن قمت بمثله قط ، أو رأيت غيري يقوم به . تناولت موسى فقطعت سرة الطفل ثم ربطتها بخيط ربطاً محكماً ، ثم غسلته من دم الولادة . ثم لففته بما تيسر لي من الخرق . وكانت الأختان تتابعان ما أقوم به مدهوشتين صامتتين . ويبدو أن الطفل قد ارتاح بعد هذه العملية فنام نوماً هادئاً ، وبدا وجهه حلواً مكلثماً . وتتجرأ الأخت الكبرى فتتناوله مني وتضعه في حجرها وأجدها تتأمله بحنان ووله ، وكأني لمحت شفتيها تضطربان ، ودمعتين تجولان في عينيها تحاول التغلب عليهما . قلت :

ــ ليس علينا الآن سوى أن نخبر أقرب مخفر للشرطة ليبعث إلينا بمن يستلم الطفل منا بعد أن نقصّ عليه حكايتنا . وبذلك تنتهي المشكلة التي أخافتكما .

قالت الصغرى :

ــ ألا ترين أنه من الأنسب أن نحتفظ بالطفل ولو بضعة أيام ؟ فربما عادت إلينا أمه وطالبتنا به . أوَيجوز لنا أن نفضحها بعد أن خدمتنا بإخلاص شهوراً طويلة ؟؟

وتوافق فوراً الأخت الكبرى على هذا الاقتراح . وترجوني أن أذهب إلى السوق وأشتري ما يلزم الطفل من غذاء وكساء . وأنفّذ ما طلب مني . وأتركهما على أن أعود إليهما بعد أيام قلائل وعندئذٍ سنخبر الشرطة بأمر الطفل كما اتفقنا .

وأعود إلى زيارتهما بعد أيام فأجد الأخت الكبرى قد هجرت سريرها ووضعت الطفل في حجرها وراحت تهدهده وتناغيه ، وتنادي أختها بين آونة وأخرى لتقول لها :

ــ أسرعي ، تعالي انظري .. إنه يبتسم .. يتثاءب .. يمد يده .. يفتح عينيه .. يغلقهما ..

وفي كل مرة كانت الصغرى تهرع من المطبخ حيث كانت تعد طعام الطفل ، أو تغسل حوائجه ، وتأتي لترى حركاته وسكناته . وتغتنم الأخت الكبرى فرصة غياب أختها فتقول لي :

ــ أتصدقين أن هذا الطفل قد شفى أختي من وسواسها ؟؟ من يوم رأته لم تعد تهتم بتنظيف البيت اهتمامها الجنوني . إنها الآن تنظفه بطريقة معقولة ، أي كما ينظف كل الناس بيوتهم . ما رأيك أن نحتفظ به من أجلها ؟

قلت لها وأنا أضحك في سري :

ــ إن هذا خير ما تعملين .

ولما ودعتها وانصرفت استوقفتني الصغرى خلف الباب وقالت :

ـ أتدرين أن هذا الطفل الرائع قد شفى أختي من وسواسها ؟ منذ وُجد بيننا هجرت أختي سريرها ، ولم تعد تشكو أمراضها التي لا تشفى ، حتى لم تعد تتناول دواءً . لقد تظاهرت أمامها بأنني مولعة به ، واتفقنا أنا وهي على أن نحتفظ به . وأخشى ما نخشاه أن تعود أمه إلينا وتأخذه منا ، فتحرمنا من هذه النعمة . من أجل ذلك قررنا أن نهجر هذا البيت كي لا تهتدي إلينا . ثم بدا عليها أنها ندمت على ما قالته لي فأردفت :

ـ أرجو ألا تبوحي لأحد بما اسررت إليك ، فما من إنسان غيرك يعرف سرنا ، وربما وبختني أختي لأنني فرّطت بالسر إليك .

ولأول مرة ألمس تفاهماً بين الأختين . وأخرج من بيتهما هذه المرة دون أن أتنفس لأرتاح ، أو أشعر أن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن صدري .

بعد أسبوع عدت إلى زيارتهما على جري عادتي . وكم كانت دهشتي عظيمة حين علمت من الجيران أنهما هجرتا البيت إلى غير رجعة ، ودون أن تتركا عنواناً يدل عليهما .

ضحكت من أعماقي حين تصورتهما تفران بالدواء الشافي ، والكنز الثمين وتختفيان حتى مني أنا !..

يا نايم وحِّد اللّه

كان هو من صميم الشرق ، ومن أقدم مدن العالم ، كان من دمشق الخالدة . وكانت هي من العالم الجديد ، من بلاد ناطحات السحب والإنسان الآلة . وحينما تزوجا كان يحمل كل منهما في أعماقه أمنية تعاكس أمنية الآخر .

كانت هي ترغب في أن تهجر بلادها إلى الشرق ، إلى أرض الأنبياء ، ومهبط الوحي ، ومنبع الأساطير .

وكان هو وقد بهرته مدنية بلادها يؤثر أن يظل فيها . وقد استطاع بعد جهد أن يقنعها برأيه حين أكد لها أن ما يتيسر له من الكسب في بلادها لن يتيسر له في بلاده . فأذعنت له مرغمة .

ذات يوم ولما يمضِ على زواجهما إلا شهور قليلة دعته إلى

مائدة الإفطار التي هيأتها له كعادتها كل صباح ، فإذا هو يقول لها وكان لا يزال ممدداً في سريره :

ـــ لن أتناول معك الفطور ، ولمدة شهر كامل . أنا يا عزيزتي صائم ، لقد هلَّ اليوم شهر رمضان ، وهو شهر الصوم عندنا .

قالت له مستغربة :

ـــ ومتى ستأكل إذن ؟

ـــ لن آكل حتى تغرب الشمس ويذوب الشفق .

فجاءت وجلست على طرف سريره وراحت تستوضحه بكثير من الفضول عن شروط وتقاليد شهر رمضان هذا ، فما كان يستهويها شيء من أحاديث الصيام كحديثه عن بلاده العتيقة ، وآثارها القديمة ، وتقاليدها العريقة ، وبيوتها ذات الطابع الخاص . ويروح هو يصف لها شعائر رمضان وتقاليده ويسهب بالوصف منتشياً بالذكريات التي أثارها الشوق والحنين إلى الوطن والأهل :

ـــ البارحة هلّ رمضان ، شهرنا الفضيل ، أتدرين كيف نستقبله ؟ في بلادنا نستقبله كما يُستقبل العظماء الفاتحون ، بإحدى وعشرين طلقة من المدافع التي تنصب في أركان المدينة خصيصاً من أجله . ونتهيأ عادة لمقدمه قبل حلوله بأسابيع . فكان أبي يرسل المؤن إلى بيتنا ببحبوحة ، ويخص ببعضها المعوزين من جيرانه وأقربائه . فرمضان في عرفنا هو شهر الكرم والخير والبركة . وما زلت أذكر

كيف كانت أمي وأخواتي الصبايا يشترين الثياب الجديدة من أجل هذا الشهر ، وكيف كن ينظفن البيت من السقيفة إلى القبو كما لم ينظفنه أبداً في أي وقت آخر . وأكثر ما كان يطربني في شهر رمضان هو صوت المسحر ، ذلك الرجل الذي كنا لا نراه إلا حين يهل رمضان ، فيخرج بعد منتصف الليل يجوب الحارات وهو ينقر على طبلة صغيرة يحملها بيده نقرات ذات إيقاع رتيب . ويقف أمام كل بيت وينادي ويكرر النداء :

يا نايم اذكر الله ـــ يا نايم وحِّد الله .
قوموا لسحوركم جاء النبي يزوركم .
شهر فضيل عند الله ، شهر عبادة ومحبة وغفران .
يا نايم اذكر الله ـــ يا نايم وحِّد الله .

كنا نصحو على صوت المسحر ونقرات طبلته فنقوم من أسرَّتنا لنتناول وجبة طعام قبل بزوغ الفجر . فإذا سمعنا مدفع الإمساك يرافقه صوت المؤذن ينبعث من مئذنة الجامع القريب من دارنا حنوناً رهيباً في آن واحد ، كان ذلك إيذاناً ببدء الصوم فنمسك عن الطعام والشراب حتى بعد غروب الشمس بقليل .

قالت له مستغربة :

ـــ وكيف تستطيعون ذلك ؟ ألا تجوعون وتعطشون ؟؟

فضحك وأجابها :

ـــ طبعاً نجوع ونعطش ، والماء القراح يجري أمامنا ، والطعام النفيس في متناول أيدينا . ولكن معاذ الله أن نقدم على شيء من هذا وقد نوينا الصيام .. الغاية من الصوم هي تقوية الإرادة ضد شهوات الجسد ونزواته ، كما أن المنعمين من الناس حين يصومون يدركون عذاب الجوع فيشعرون مع الجياع والمحرومين .

وتعجب هي أشد العجب بهذه التعاليم الإنسانية فتقرّر فيما بينها وبين نفسها أن تجرّب الصيام .

ويستأنف حديثه معها سارحاً في ذكرياته الحلوة فيقول لها :

كان يحلو لأبي أن يجلس على الليوان بعد صلاة العصر وفي حجره مصحف يرتل القرآن حيناً ، ويسبِّح حيناً وهو يتلهى عن صيامه بمرأى زوجه وبناته يتخطرن أمامه بثيابهن الزاهية ، يعددن الطعام ويهيئن مائدة الإفطار . وكان من تقاليد أسرتنا أن تنصب مائدة رمضان في صحن الدار بين الليوان والبحرة .

فتقول له مستفسرة :

ـــ ما الليوان ؟ وأين تقع البحرة ؟.

فيضحك ويقول لها :

ـــ لا عجب أن تستغربي ذلك . لقد اعتدت أن تري الحدائق تحيط بالدور من خارجها . أما في بيوتنا الشامية القديمة فالأمر يختلف تماماً . الحديقة تقع في منتصف البيت ونسميها (الديار) وهي أشبه

ما تكون بالخميلة الوارفة ، تتوسطها بحرة ذات نافورة ، وتحيط بها أشجار الليمون والنارنج والكباد ، وتتسلق جدرانها أغصان الياسمين ، والزلف ، والمنفشا ، وتُنصب فيها دوالي العنب لتحجب الشمس عنها . ومن حولها تقام غرف الدار وفي صدرها الليوان وهو غرفة كبيرة لها ثلاثة جدران فقط مفتوحة على الباحة ولها قوس عالٍ تزينه نقوش شرقية زاهية . وفي الليوان كنا نستقبل ضيوفنا في أيام الربيع والصيف . وبه تسهر الأسرة ، وإذا قدر لك أن تزوري دمشق ذات يوم فسيروقك فيها أكثر ما يروقك تلك الدور القديمة الفريدة من نوعها . أتدرين من كان يوقظنا فيها قبل شروق الشمس لنؤدي صلاة الصبح ؟ كانت زقزقة العصافير ، وأغاريد الشحارير تلك الطيور السود ذات المناقير البرتقالية والأصوات الحنونة والتي كان يحلو لها أن تعشش في الدالية الوارفة التي كنا ننصب تحتها مائدة رمضان . فإذا قرب موعد الإفطار كنت أرى أخواتي رائحات غاديات بين المطبخ والمائدة يحملن صحون الحلوى والفاكهة فيصففنها على حافة البحرة لتبرد . فإذا لم يبقَ لآذان المغرب إلا دقائق معدودات كان أبي يقوم فيغسل يديه ، ثم يأتي إلى المائدة فيترأسها ، وكنا نحن نجلس حوله صامتين ، آذاننا تترقب صوت مدفع الإفطار ، وعيوننا تلتهم الطعام ، وأنوفنا تستنشق رائحته الذكية ، ولعل هذه الدقائق القصيرة كانت أشد مشقة علينا من اليوم بأسره . وفجأة يدوي مدفع الإفطار ، يرافقه صوت المؤذن فيبدأ أبي بتلاوة دعاء قصير كنا نردده معاً في

خشوع ، فإذا انتهى منه سمى بالله وابتدأ بالأكل فنتبعه نحن ، وتمضي فترة لا يسمع فيه إلا صوت الملاعق تهوي إلى الصحون وترتد إلى الأفواه بسرعة عجيبة . فإذا انتهينا من الطعام تقوم أمي فتجمع ما تبقى منه لتوزعه على السائلين الذين كانوا يطرقون بابنا في مثل هذه الساعة من كل يوم ، ثم يلتئم شمل الأسرة في الليوان نشرب القهوة المرة المعطرة بحب الهال ، ونتحدث بما يحلو لنا من الأحاديث .

أما أحلى ليالي رمضان فهي الليلة السابعة بعد العشرين ، لأننا نعتقد أن لهذه الليلة قدسية خاصة ، فربما تجلت في لحظة من لحظاتها الخارقة ليلة القدر التي هي في اعتقادنا خير من ألف شهر . فكان أبي يدعو بعض أصحابه من المشايخ ليحيي معهم بذكر الله هذه الليلة الفضيلة . كما كان يدعو معهم أيضاً بعض رجال الميلوية ليرقصوا على أنغام الناي رقصاتهم الدينية المستمدة من مصادر روحانية صوفية . وكم كنت أعجب بهذه الرقصات الفنية التي لا تقل دقة في حركاتها عن رقص الباليه . كنت أتابعهم مأخوذاً بحركاتهم الرشيقة منذ يقومون فينحنون بأدب جم أمام رئيسهم كأنهم يستأذنونه . ثم يخلعون جباتهم السوداء السابغة فتظهر أثوابهم البيضاء الفضفاضة المشدودة بإحكام على خصورهم ، وكانوا يضعون على رؤوسهم قلانس عالية من لباد أسطوانية الشكل ، ويبدأون رقصهم بنقلات بطيئة رتيبة ، وأيديهم معقودة على صدورهم ، ورؤوسهم منحنية إلى الأمام تعبِّر عن التوسل والخضوع ، ثم تسرع خطواتهم شيئاً فشيئاً حتى تصبح دوراناً لولبياً

تتسع من سرعته أثوابهم الفضفاضة فإذا هي دوائر كبيرة تنبثق من وسطها جذوعهم ثابتة دون أي التواء . ثم تمتد أيديهم بضراعة وابتهال نحو السماء ، وترتفع رؤوسهم إلى الوراء وتميل قليلاً إلى اليمين ، وتتيه نظراتهم في الفضاء اللامتناهي دلالة على مرحلة الوجد ، مرحلة الانعتاق ، وتوق الإنسان إلى الذات القدسية ، وإذا هم يعبّرون بالحركات تعبيراً بليغاً تعجز عنه الكلمات .. كان دوران الراقصين على وتيرة واحدة ، وأنغام الناي الرتيبة وترديد المشايخ : الله هو ـــ الله هو ، يجعلني أندمج معهم بصورة لا شعورية فأردد أنا أيضاً الله هو .. الله هو .. وأجدني في دوامة ، كاستمرارية هذا الكون الذي نعيش عليه .

كان كلما أسهب في وصفه هذا تصغي هي إليه مأخوذة وخيالها يمعن في جموحه فيرسم لها صوراً أسطورية لهذا البيت العجيب وأجوائه الغريبة الخلابة فتقول له جادة :

ـــ لن أدعك هذه المرة قبل أن آخذ منك وعداً قاطعاً بأن نزور بلادك ، وفي شهر رمضان المقبل .

ـــ لن أخيب أملك هذه المرة ، ولكن عليك أن تنتظري سنة كاملة قالت : لا بأس سأنتظر سنة ، على أن تقوم الآن فتكتب الرسالة إلى أهلك تحدد لهم فيها موعد مجيئنا حتى يطمئن قلبي .

حين وصلت رسالته إلى أهله فرحوا بزيارة ابنهم المهاجر

وزوجه الأمريكيــة ولو بعـد سنــة ، وتداولوا فيما بينهــم ، كيف سيستقبلون كنتهم الأجنبية في هذا البيت العتيق ؟ فقرروا أن يهدموه ويبنوا مكانه بيتاً على الطراز الحديث ليكون مفاجأة سارة لابنهم .

وما هي إلا أيام قلائل ، فإذا المعاول راحت تهدم البيت العتيق ، وتأتي على معالم الذكريات الغالية فيه .

وكانت وراء البحار امرأة صبية ما تزال تحلم بالبيت العجيب الذي تتوسطه خميلة وارفة ، فيها بحرة ذات نافورة ، يرقص حولها على أنغام الناي رجال ذوو ألبسة بيضاء فضفاضة ، ولحى طويلة ، وعلى رؤوسهم قلانس عالية . وتوقظ سكانه من نومهم فجر كل يوم زقزقة العصافير ، وأغاريد الشحارير ، ونداء مسحر رمضان في بهيم الليل :

يا نايم اذكر الله ، يا نايم وحِّد الله !...

هديته إلى الثوار

كانت ميتة خرقاء تلك التي كتبت على الحدّاد الشاب ــ عبد الستار الشاغوري ــ !... ميتة قيل إنها جاءت مصادفة ، حملتها إليه رصاصة طائشة لم تجد هدفاً لها خيراً من صدره العريض فاستقرت فيه ، وفي لحظة خاطفة ، غدا الحدّاد العتليت الذي لم يتجاوز الثلاثين من عمره جثة هامدة ، مطروحة على الأرض يصبغ نجيعها تراب الدرب !..

كان هذا المنظر على الرغم من بشاعته قد أصبح مألوفاً لدى سكان دمشق إبان الثورة السورية . يوم صار الموت بالرصاصات الطائشة أمراً شائعاً ، لا يثير الاستغراب أو الدهشة . فكثيراً ما كانت المعارك تنشب بين الفرنسيين والثوار في شوارع المدينة ، وأحياناً بين حواريها الضيقة فيطيش الرصاص كيفما اتفق ويردي المارة قتلى . وكان واضحاً لدى جميع الناس أن هذه الرصاصات الطائشة قلما

كانت تأتي من بنادق الثوار ، لأن رصاصهم كان عزيزاً وغالياً لا يفرطون به إلا في المواقف الحاسمة . أي حين يواجهون الأعداء . بينما كان الفرنسيون يطلقون الرصاص أحياناً على سبيل المزاح ، أو للترفيه عن النفس ، وليتسلوا بمرأى الذعر على وجوه المارين في الشوارع .

عندما أصابت الطائشة عبد الستار الشاغوري كان على بعد خطوتين من بيته ، وكان ذلك في شهر رمضان ، وقبيل مدفع الإفطار . وكان الرجل صائماً يوسع الخطى ليصل إلى بيته قبل أن يدركه الوقت . وكان يحمل كيساً كبيراً فيه عشاء زوجه وولديه التوأمين الصغيرين !..

كان عبد الستار يقول لزوجه : إن أحلى لحظات حياته هي حين يضع المفتاح في باب بيته . كان يتئد قليلاً قبل أن يدخل ، ثم يرهف سمعه كي يتلذذ بسماع صوت الصغيرين وهما يصرخان وكأنهما يزقزقان : بابا ... بابا .. ثم يصغي إلى صوت نقرات خطواتهما الصغيرة وهما يتسابقان نحو الباب . وعندما يبصرانه كانا يقفان أمامه ساكنين ، ثم يفتحان فميهما ويلبثان لحظة ينتظران ، كما تفعل أفراخ الطير تماماً . ثم يضع في فم كل واحد منهما قطعة من الحلوى فيطبقان فميهما عليها ، ويتواثبان حوله ، ويتشبثان به حتى يحملهما ويدور بهما في صحن الدار ــ هكذا عودهما ــ وكانت هذه اللعبة تتكرر كل يوم . وفي كل مرة كان الأب يشعر أن السعادة تغمره من فرقه حتى قدميه . كان يسمي توأميه بالفرخين . وكان الرجل متفائلاً

إلى حد بعيد ، يعتقد أن في قدرته ــ هو الحداد الفقير ــ أن يجعل من فرخيه الصغيرين نسرين قويين يحلقان عالياً .

ولكن الرصاصة الطائشة عاجلته !.. هدمت ذلك كله في طرفة عين .

أقيم لعبد الستار الشاغوري مأتم حافل في دار جاره أبي سعيد الخباز . لأن دار الشهيد كانت صغيرة لا تتسع لأفواج المعزّين ، فالرجل كان معروفاً في أكثر أحياء دمشق بنخوته ومروءته وتفانيه في سبيل وطنه وأمته .

بعد أن انصرف الناس من المأتم ، وبقي أهل الحارة وحدهم قال أبو سعيد الخباز صاحب البيت :

ــ يا أسفي عليك يا جار الرضا !.. أكاد يا اخوان لا أصدق أن عبد الستار قد مات .. على الرغم من أنني رأيته بعيني يصاب بالرصاصة الملعونة ، ورفعته عن التراب بيدي هاتين . من قال إن رصاصة صغيرة تقتل ذاك العملاق ؟ يا حسرة عليه لقد انقصف عمره وهو في عز الشباب كان والله رجلاً حقاً !..

قال الشيخ مسعود إمام الجامع :

ــ هذا يا ابني يومه الموعود ... أول البارحة كنت ماراً بسوق الحميدية ، وكانت السوق مكتظة بالناس أكثر منها في أي وقت آخر . وفجأة راح الرصاص يتساقط علينا من كل صوب دون أن

نعرف مصدره ، أصيبت امرأة وقتل طفل صغير ، وبعد لحظة سكن كل شيء ، وعادت الأمور إلى ما كانت عليه كأن لم يحدث ذلك الأمر الفظيع . وكان ذلك قبيل مدفع الإفطار أيضاً ، أي في نفس الوقت الذي قتل فيه عبد الستار ، كأنهم يختارون ذلك الوقت عن عمد ليشيعوا البلبلة بين الناس .

انبرى أحمد الحلاق قائلاً :

ــ أتصدقون يا ناس مهزلة الرصاصات الطائشة هذه ؟؟ إنها والله مؤامرات مدبرة ، يريد الفرنسيون أن يبثوا فينا الذعر ، أن يجعلونا نكفر بالثورة ، وكلما أرادوا أن يتخلصوا من واحد منا أرسلوا إليه من يصطاده ، ثم يقولون بكل بساطة :

ــ مات برصاصة طائشة .. يا لها من طريقة سهلة للتخلص ممن يخافونه . لماذا يا ترى لم تصب الطائشة إلا عبد الستار ؟. لماذا لم تصبني أنا ؟ أو أنت ؟ أو أي واحد آخر من أبناء حارتنا ؟ لم يعد خافياً على أحد أن أخا عبد الستار أصبح من زعماء الثورة المرموقين . وقلما يمضي يوم إلا ويهاجم هو ورجاله أحد المخافر الفرنسية . وعبد الستار نفسه ــ الله يرحمه ــ كان كلما عرف أن الفرنسيين سيشنون هجوماً على غوطة دمشق ، كان يغلق دكانه ويتسلل إلى هناك تحت جنح الليل لينضم إلى أخيه . وكان كما تعلمون يملك بارودة ألمانية ممتازة ، وكانت يده لا تخطئ الهدف أبداً . لا شك أن أحد الخونة قد وشى به . منذ يومين رأيت في حارتنا جنديين من الجيش

المختلط يتسكعان فيها وكأنهما يترصدان أحداً لقد خامرني الشك في أمرهما ، وأقسم بالله أنني رأيتهما البارحة أيضاً قبل أن تصيب الطائشة عبد الستار . لا بد أنهما لطيا بمنعطف ، فلما مر المسكين اصطاده أحدهما ثم وليا هاربين .

قال الشيخ مسعود :
ـــ على هذا المنوال سيصطادوننا واحداً بعد واحد كالعصافير تماماً . قال أحمد الحلاق :
ـــ طبعاً ! .. ما دمنا لا نعرف كيف نصطادهم !..

قال الشيخ مسعود متسائلاً بصوت خفيض ولهجة خانعة :
ـــ نحن نصطادهم ؟؟ مستحيل يا بني ، العين لا تقاوم المخرز ! ..

ويثب أحمد الحلاق من مكانه ، ويقف قبالة الشيخ مسعود واضعاً يديه بخاصرتيه يقول له متحدياً وبسخرية :
ـــ سيدي الشيخ ! قل لي بالله : إلى متى سنظل عيوناً تُخرز ؟؟ جيلكم علمنا الخنوع ، نحن أيضاً نستطيع أن نكون مخارز ... ماذا ينقصنا ؟؟ هم رجال ، ونحن رجال ..

وينطق رجل ظل صامتاً طول السهرة فيوجه كلامه إلى أحمد الحلاق قائلاً له :
ـــ يا هذا قبل أن تعظ وتتفلسف ، لَمَ لا تذهب إلى الثورة ؟

وهناك تستطيع أن تبرهن على شجاعتك ومروءتك أكثر من هنا ...

أجابه أحمد :

ـــ أقسم لك بالله العظيم أنني ذهبت إلى زعماء الثورة في الغوطة أكثر من أربع مرات ، وفي كل مرة كانوا يقولون :

ـــ لا يوجد عندنا سلاح .. رحْ دبِّر بارودة وبعدئذ تعال . وإلى الآن لم أستطع أن أجمع خمس ذهبات ثمن بارودة !..

ويرين الصمت برهة . كان الشيخ مسعود خلالها يمد يده إلى جيبه فيخرج منه كيساً صغيراً ثم راح يفتحه بتؤدة ، ويفرغ ما فيه في كفه ، ثم يتقدم من أحمد الحلاق ويقول له :

ـــ هذه خمس ذهبات ، كنت ادخرتها ليوم جنازتي ، الأحياء خير من الأموات . خذها يا بني واشتر بها بارودة ، واعفُ عن جيلنا الذي علمكم الخنوع ، كما تعتقد أنت وأمثالك ..

ويقوم أحمد وينكبُّ على يد الشيخ مسعود يقبلها وجهاً وقفاً ، ثم يأخذ منه الليرات الخمس ويدسها في جيبه وكأنه قد ملك الدنيا .

يقول أبو سعيد الخباز :

ـــ يا سيدنا الشيخ ! هذه والله هي الوطنية الصحيحة ... من لم يستطع الجود بنفسه فليجد بماله .

ثم يلتفت إلى أحمد ويقول له :

ــ اسمع مني يا أحمد وقم واشــتر بما أعطاكه الشيخ بارودة المرحوم عبد الستار .إنها والله بارودة ممتازة . لا شك أن زوجته الآن في حاجة ماسة إلى المال وستبيعها لك فوراً .

يقول أحمد :

ــ فكـرة عظيمــة .. قـم معي الآن ، المـرأة جارتك ، ربما تطمئن إليك أكثر مني .

ويقوم الرجلان إلى بيت الشهيد فيطرقان باب أرملته الشابة ، فإذا صوت مبحوح قد أنهكه العويل والبكاء يرد عليهما .

يقول أبو سعيد :

ــ افتحي يا أختي ، أنا جاركم أبو سعيد ، أريد أن أتحدث إليك بكلمتين .

وتســرع المـرأة فتــلتف بمـلاءتهـا وترخي حجــابها وتدخل الرجلين . فيقول أبو سعيد الخباز :

ــ هذا يا أختي أحمد الحلّاق . لا شك أنك تعرفينه ، هو ابن حارتنا ، ورجل طيب ، وابن حلال ، يريد أن يشتري منك بارودة المرحوم .

وتقول المرأة على الفور :

ــ أعوذ بالله ؟.. أنا ما عندي بارودة للبيع ..

يقول لها أبو سعيد :

ــ لا تخافي يا أختي طمئني بالك ، أنا أضمن لك الرجل ، لا يمكن أن يشي بك أحد . هذا ابن حارتنا ، وواحد منا ، أعطه البارودة أنت الآن أم أيتام وفي حاجة إلى المال .

وترد المرأة بلهجة قاطعة :

ــ والله يا أبا سعيد لو مت من الجوع أنا وأولادي ، لن أبيع بارودته !.. معاذ الله أن أفعلها !..

ويتهدج صوتها فتصمت عن الكلام ، وكان يبدو عليها على الرغم من الحجاب أنها تبذل جهداً جباراً كي تبدو صامدة جلدة أمام الرجلين .

يقول أحمد الحلاق :

ــ أرجوك ، أتوسل إليك ، أنا في حاجة إلى بارودة لألتحق بالثوار وأدافع عن أرض الوطن . أنت يا أختي زوجة مجاهد وتقدرين الجهاد في سبيل الوطن .

تقول المرأة :

ــ إذا كنت ستلتحق بالثورة حقاً ، ولا تريد البارودة لتتاجر بها ، سأقدمها إليك مع العباءة هدية .. إنها عباءة جديدة لم يلبسها المرحوم والله إلا مرتين . كان يقول لي :

ـــ أمانة في رقبتك ، إذا مت ابعثي بارودتي وعباءتي هدية مني إلى الثوار ..

يقول أبو سعيد وهو يمسح دمعتين لم يستطع حبسهما :

ـــ رحمة الله عليك يا عبد الستار !.. الكريم كريم حياً كان أم ميتاً .

ثم يردف متلعثماً :

ـــ أنت يا أخت في ظروف حرجة ، يجب أن تقبلي ثمن البارودة .

ترد عليه قائلة :

ـــ معاذ الله أن أخون الأمانة في هدية عبد الستار إلى الثوار !.. إن الله يا أبا سعيد لا ينسى عباده ، رزقنا عليه ...

وتقوم وتدخل إلى غرفة تغيب فيها قليلاً . ثم تخرج منها وهي تحمل بارودة لّماعة ، وعباءة جديدة ، تقدمهما إلى أحمد الحلاق وهي تقول له :

ـــ ضع العباءة على كتفيك ، ثم اخفِ البارودة تحت ابطك ، كي لا تثير أي شبهة . هكذا كان يفعل المرحوم !..

ويختنق صوتها فتدخل غرفتها وتغلق بابها ، وتنفجر باكية . وينظر الرجلان واحدهما إلى الآخر ، ثم يخرجان مطرقين ويسيران صامتين . بعد فترة قال أحمد الحلاق :

ـــ مالك يا أبا سعيد لا تقول شيئاً ؟

ـــ ما عساي أن أقول ؟ إن موقف هذه المرأة أكبر من أن تعبِّر عنه الكلمة ... هات أعطني الخمس ليرات لأشتري بها بارودة وألحق بك إلى الغوطة ، ورزق العيال على الله ...

حمّام النسوان

كان بيتنا يعاني مشكلة فريدة من نوعها .. وهي أن جدتي ــ وقد تجاوزت السبعين من العمر ــ كان لا يحلو لها أن تستحم أول كل شهر ، إلا في حمام عام ، أو في حمام السوق كما كانت تسميه .

ولحمام السوق نكهة خاصة في عرف جدتي لا نستطيع نحن اللواتي لم نذقه أن ندرك كنهها .

كنا نخشى على عجوزنا أن تتزحلق على بلاط الحمام اللزج ــ وكثيرا ما يحدث هذا للمستحمات ــ فتكسر عظامها ، وقد جعلتها السنون السبعون هشة نخرة ، أو أن يلفحها برد قارس حين تخرج إلى الطريق بعد جو الحمام الدافئ فتصاب بمرض قد لا تنجو منه أبداً !.. ولكن أنى لنا أن نقنع عجوزنا العنيدة بهذه الحجج ؟؟ وهيهات أن تتخلى عن عادة ظلت تمارسها سبعين سنة دون أن تصاب

بما نحذرها منه الآن . وقد آلت على نفسها أن تستمر على عادتها تلك ما دامت تستطيع السير على قدميها . وكانت جدتي تزداد تشبثاً برأيها وتمسكاً به كلما حاولت أمي إقناعها .

وكانت أمي لا تمل أبداً من نقد حماتها ومجادلتها وتبيان سخف آرائها ولو من طرف خفي . فكلما جاء ذكر الحمامات العامة تروح أمي تعدّد مساوئها من نواح صحية ، واجتماعية ، واقتصادية أيضاً .

أما الذي كان يزعج أمي حقاً ، هو أن جدتي كانت يوم حمامها تستأثر بخادمنا الوحيدة منذ الصباح الباكر ، فتدعوها إلى غرفتها لتساعدها في كنس الغرفة ، وتغيير ملاءات السرير ، وصر بقج الحمام ، ثم تذهب معها إلى الحمام ، ولا تعود بها إلّا حوالي المغرب منهوكة القوى تكاد لا تستطيع عملاً .

كنت أراقب في بيتنا صراعاً عنيفاً ، ولو أنه خفي يدور بين حماة وكنة . بين جدتي التي تتمسك بمكانتها في البيت ، ولا تريد أن تتخلى عنها أبداً ، وبين أمي التي كانت تسعى جهدها لتزيح حماتها وتحتل مكانها .

وعلى الرغم من أن البنات يقفن عادة في صف أمهاتهن ، كنت أنا أشعر بعطف شديد نحو جدتي التي داهمتها الشيخوخة منذ مات جدي من أمد قريب ، وأصبحت جدتي أرملة ، وراح ظلها يتقلص عن بيتنا شيئاً فشيئاً بينما يمتد عليه ظل أمي .

سنة الحياة أخذ ثم تسليم . ولكن هيهات أن نستسلم لها قانعين راضين .

كنت أشعر بشيء من الألم يحز في نفسي حين أرى جدتي تعتكف ساعات طوالاً وحيدة في غرفتها بعد انهزامها في جدال مع أمي . كنت أسمعها أحياناً تحدث نفسها بمرارة ، أو أراها تهز رأسها هزات رتيبة وهي صامتة كأنها تقرأ سفر حياتها الطويل ، وتستعرض من خلالها أيامها الخوالي ، يوم كانت سيدة هذا البيت بلا منازع ، وصاحبة الكلمة الأولى فيه ، وكثيراً ما كنت أراها تفرغ سورة غضبها على سبحتها الألفية فتفرك حباتها بعصبية وهي تسبح وتردد :

يا لطيف تجعل للبلا تصريف !..

ومن عساه يكون هذا البلاء غير أمي ؟..

ثم لا تلبث أن تهدأ سورتها شيئاً فشيئاً فتنسى السبب الذي أدى إليها . فلا شيء كذكر الله يطهر النفس ويعين على تحمل مصائب الدهر .

خطر لي ذات مرة وقد رأيت جدتي تهيئ حوائجها لتذهب إلى حمام السوق أن أرافقها إليه ، أنا التي لم يسبق لي أبداً أن رأيت حمامات السوق ، ولعلي أستطيع أن أكتشف السر الذي يجذب جدتي إليها . ولما أبديت لها رغبتي هذه فرحت كثيراً . أما أمي فلم ترق لها هذه البادرة مني ، فقالت لي على مسمع من جدتي :

ـــ حتى أنت أيضاً تسرب إليك هوس حمام السوق ؟؟ من يدري ؟ قد تصابين منه بمرضٍ سارٍ كالجرب مثلاً أو غيره فتسري عدواه بين إخوتك .

فإذا أبي يقول لها بلهجة قاطعة :

ومالك أنت ؟ دعيها تذهب مع جدتها . كلنا ذهبنا في صغرنا إلى الحمامات ولم نصب بأذىً .

وتسكت أمي على مضض ، بينما تبتسم جدتي معتزة بهذا النصر ، إذ قلما كان أبي ينتصر لآرائها ضد أمي .

وإذا جدتي تقوم وتقودني من يدي إلى حيث كان يرتكز صندوقها الضخم ، وتخرج المفتاح من جيبها ثم تفتح الصندوق أمامي ــ وهذا شرف لي ، فلم يسبق لهذا الصندوق العتيد أن فتح أمام أحد سواي ــ وتنبعث منه على الفور رائحة غريبة وأليفة في آن واحد ، لا نشمها إلا من صناديق العجائز كأنها رائحة القِدم رائحة الماضي الغابر ، والسنين المطوية المحزونة ، وتُخرج جدتي من قعر الصندوق بقجة من مخمل أحمر قد طرزت زواياها بالخرز والبراق ثم تفتحها أمامي ، وتناولني منها مئزر حمام خمريَّ اللون قد انتثرت عليه نجوم ذهبية ، لم تر عيناي مئزراً أجمل منه ، وتعطيني أيضاً مناشف بيضاء، أطرافها محلاة بالقصب الفضي وتقول لي :

هذا كله جديد لم يستعمله أحد، احتفظت به من أيام

عرسي ، والآن أعطيكيه هدية مني ما دمت سترافقينني إلى الحمام .. يا حسرة علي !.. أنا التي لم يعد يرافقها أحد غير الخدم !.. وتتنهد في عمق ، وترسل زفرة حرّى . ثم تنادي الخادم لتحمل لنا البقج التي تحوي ملابسنا ومناشفنا ، والكيس الكبير الذي يضم الطاسة ، والصابون ، والمشط ، والكيس ، والليفة ، والترابة الحلبية ، والحناء التي ستحيل شعر جدتي الأبيض أسود كالليل . وترتدي جدتي ملاءتها ، ونتجه نحو الحمام الذي كان لا يبعد عن بيتنا إلا بضع خطوات ، ولطالما قرأت في غدوي ورواحي ما كتب على اللوحة الصغيرة التي كانت تتوّج بابه القصير المتواضع :

كل من طلب العافية من رب لطيف ،

فليقصد الله ثم حمام العفيف

وندخل الحمام . كان أول من لفت نظري فيه هو (المعلمة) . كانت امرأة ضخمة قد تربعت فوق مصطبة على يمين الداخل ، وأمامها صندوق صغير كانت تجمع فيه الغلة ، وإلى جانبه نرجيلة مزوقة بالأزهار لها نارابيش طويل كانت المعلمة تداعبه بشفتيها وتنظر إلى من حولها مستعلية . ولما رأتنا راحت ترحب بنا دون أن تتحرك من مكانها . ثم تنادي أم عبدو أي ناطورة الحمام . وتُهرع امرأة نصف ترحب بنا . مزججة الحاجبين ، مكحولة العينين ، نظيفة الثياب ، قد زينت شعرها بوردتين وعرق ياسمين ، ذلقة

اللسان ، خفيفة الحركة كالخذروف لا تستقر أبداً ، يسمع لنقرات قبقابها الشبراوي فوق أرض الحمام طقطقة موزونة . وهي بمثابة المضيفة بالحمام . تتقدم من جدتي فتأخذها من يدها وتقودها إلى مصطبة خاصة تشبه السرير ، وتسرع خادمنا فتفتح إحدى البقج وتخرج منها سجادة صلاة صغيرة تفرشها فوق المصطبة ثم تجلس جدتي عليها لتخلع ثيابها . بينما كنت أنا مأخوذة بالتطلع إلى ما حولي . أعجبتني الردهة الفسيحة التي يسمونها (البراني) كانت تتوسطها بحرة دفّاقة ، وقد قامت حول القاعة مصاطب ضيقة فرشت فوقها بسط ملونة انتثرت عليها حوائج المستحمات . أما الجدران فقد زينت بمرايا قديمة ، صفراء مجدورة ولوحات كتبت عليها حكم مأثورة قرأت في بعضها : النظافة من الإيمان .

وتهيب بي جدتي أن أخلع ثيابي . فرحت أخلعها وألتف بالمئزر الخمري : ولما كنت لا أجيد لفه كما يجب أعانتني أم عبدو فأحكمته على جسدي ورمت بأحد أطرافه على كتفي الأيسر فجاء كالساري ، أي كالزي الهندي تماماً . ثم أعانت جدتي على النزول من المصطبة ، وقادتنا نحو باب صغير يؤدي إلى دهليز معتم ونادت بأعلى صوتها :

ــ يا مروة ، تعالي خذي أم البيك .

وتنهد أمامي فجأة من العتمة كهلة عجفاء شمطاء لها وجه حفر فيه البؤس أخاديد عميقة ، عارية إلا من خرقة حائلة اللون

تدلت من خصرها حتى ركبتيها . وراحت ترحب بنا بصوت أخن ، وتثرثر بكلام ما فهمت منه حرفاً ؛ لأن ضجيج أصوات متنافرة تناهى إلى سمعي ، وبخاراً حاراً كثيفاً حجب الرؤية عني ، ورائحةً تبعث على الغثيان لم يسبق أن شممت نظيرها أبداً . شعرت بدوخة ، وكدت أتقيأ ، فاستندت على الخادم . وما هي إلا بضع ثوان حتى اعتدت الرائحة فلم تعد تضايقني أبداً . كما اعتادت الرؤية عيناي . وننتهي إلى ردهة صغيرة فيها جرن كبير تحلق حوله بضع نسوة كن يثرثرن ويغتسلن في آن واحد . وأسأل جدتي :

ــ لَمَ لا ننضم إليهن ؟. فتقول لي :

ــ هذا الوسطاني ، وقد استأجرت مقصورة في الجواني ، لأني ما اعتدت أن أستحم مع الطارش .

وأتبعها ، وندخل من باب صغير إلى الجواني وأجدني أقف مشدوهة ، أنظر بفضول إلى كل ما حولي ، الردهة المربعة وقد ارتكز في كل زاوية منها جرن كبير من رخام أبيض قعد حوله نسوة كن في حركة دائمة منهمكات بالتغسيل والتلييف والتفريك ، وكأنهن في سباق . وأرفع رأسي وأنظر إلى السقف فإذا قبة عالية فيها فتحات مستديرة مغطاة بالبللور يتسرب منها الضوء فينير الردهة كلها . وقد بلغ الضجيج هنا أشده .. رنين طاسات ، وخرير مياه ، وزعيق أطفال . وتقف جدتي هنيهة لتسلم على إحدى المستحمات من صديقاتها ، وأجدني أتابع شجاراً عنيفاً قائماً بين امرأتين صبيتين

فهمت من كلام النســوان من حولهن أنهمـا ضرتان وقد اجتمعتـا ببعضهمـا لأول مرة في الحمام ، ويحتدم الشجار بينهما فيؤدي إلى ضرب بالطاسات ، وتهز المروءة بعض المستحمات فيقمن ويفرقن بين الضرتين قبل أن يشفى الغليل .

ونتقدم قليـلاً ، فيطغى على كل ضجيج الحمام زعيق طفل وضعته أمه في حجرها ، ولفَّت عليه إحدى ساقيها وراحت تدعك رأسه بالصابون ، وتدلق عيه الماء الحار حتى غدت بشرته حمراء كأنها مسلوخة ، وأحوِّل عنه نظري خشية أن تزهق روحه أمامي .

ونصل المقصورة ، وأشعر بانقباض حين أدخلها ، فما هي إلا غرفة صغيرة في صدرها جرن ، ميزتها أنها تفصل المستحمات بها عن بقية النساء .

استقبـلتنـا في المقصورة امرأة ضخمة سمراء مجدورة الوجه ، خشنة الصوت ، هي الأسطة أم محمود ، تناولت جدتي من البلانة مروة التي كان النداء ينهار عليها من كل صوب :

بارد يا مروة ، بارد يا مروة .

وتروح المسكينة تلبي الطلب فتزود المستحمات بالماء البارد من سطـلين كبيرين كانت تملؤهما من بحرة البراني ، وتنوء بحملهما حتى لتثير الشفقة في نفس كل من يراها . وأعود إلى جدتي فأجدها قاعدة على البلاط أمام الجرن وقد أسلمت رأسها إلى أم محمود التي

استوت وراءها على كرسي من خشب لا يعلو عن الأرض إلا قليلاً . وراحت تدعك رأس جدتي بالصابون سبعة أفمام متتابعات يجب ألا تنقص ولا تزيد .

وأقف على باب المقصورة أتسلى بمشاهدة المستحمات فأرى الصبايا منهن في غدوٍّ ورواح ، يخرجن بين الفينة والفينة إلى البراني للترويح عن النفس ، وكن يتمايلن متباهيات بشبابهن الغض ، وبمآزرهن الملونة المقصبة كهنديات في معبد يعبق بالبخور ، وكانت دوائر صغيرة من الضوء تسقط من السقف وتتراقص على أجسادهن البضة فتزيدها لمعاناً . ويحزنني مرأى العجائز وهن جالسات لصق الجدران يثرثرن مع بعضهن ومعجون الحناء على رؤوسهن يسيخ ويجري دروباً سوداء في أخاديد جباههن ووجناتهن وهن ينتظرن موعد غسله بصبر فارغ .

وإذا زغاريد تنطلق فجأة فألتفت نحو مصدرها فإذا هي بضع نسوة يحطن صبية حلوة ويزغردن لها .

وتقول لي الأسطة أم محمود :

ـــ حمامنا اليوم عامر ، عندنا عروس ، ونفساء ، وستي أم البيك الله يديمها علينا .

وليس عجباً أبداً أن تنتفخ أوداج جدتي زهواً بعد أن قورنت بالعروس والنفساء .

ويروق لي أن أظل واقفة أمام باب المقصورة لأتفرج على العروس وصاحباتها . فإذا امرأة نصف بيضاء ، ممتلئة ، ملتفة بمئزر نيلي تزغرد والفرحة تغمرها ، وأفهم من كلمات زغرودتها أنها أم العروس لأنها كانت تقول :

سبع بقج بقجت لك والشامنة بالصندوق
إلك الحمد يا ربي يلي ما عازك لمخلوق

وترد عليها امرأة صبية قد تكون من قريبات العروس أو صديقاتها فتقول :

يا فايته من باب الوسطاني بالفوطة السيسباني
يلِّي ما فرح بعرسك يموت كافر بلا إيماني

وتعود أم العروس إلى الزغردة فتقول :

زقزق العصفور وانطلق بين الدوالي والورق
يا ما أحلى العروس بالحمام جبينها مكلل بالعرق
باب المدينة عالي حورته بالخنصر
وأنا إلي سبع سنين على هاالنهار بتحسر

لكن أحلى الزغاريد كانت زغرودة أم العريس :

يا كنتي أنا اتكنيتك وعلى عيون العدا نقيتك
بنات الشام كتيرة وقلبي ما هوي واشتهى غيرك
فستق وبندق وبلح وقلب العدو انجرح

نحنـــا اليـــوم فـــرحـــانـــين   والعـــدو مـــا يشـــوف الفـــرح

وتنتهي الزغاريد حين تتحلق العروس وصاحباتها حول قصعة وضعت فيها أقراص من طعام الصفيحة الشامية ، وأخرى امتلأت بصنوف من الفاكهة . وتنشط أم العروس فتوزع أقراص الصفيحة يميناً ويساراً ، وقد نابني واحد منها .

وفي ركن منزوٍ كانت امرأة تجلس مع أولادها الأربعة حول صحن مليء بطعام المجدرة ، وأقراص مخلل اللفت ، وكان الانهماك بالأكل قد صرفهم جميعاً عن كل ما يجري حولهم في الحمام . حتى إذا فرغ الصحن من الطعام تتناول الأم من سلة إلى جانبها رأساً كبيراً من الكرنب تقبض على أوراقه الطويلة الخضراء وترفعه عالياً ثم تهوي به على بلاط الحمام مرات عديدة حتى ينفلق ويتناثر شقفاً يتخاطفها الأولاد ويروحون ينهشونها بشراهة متلذذين بطعمها الحلو . وتسترعي انتباهي صبية حلوة بين الخامسة والسادسة عشر من عمرها ، كانت تجلس على مصطبة تحاذي جدار بيت النار ، وكانت الصبية تبدو برمة ضجرة كأنها تضيق بما يبعثه مجلسها من حرارة تمتد حولها ، وقد أحاط بها ثلاث نسوة كانت إحداهن تفرط في تدليلها كأنها أمها ، ثم راحت تطلي جسدها بمعجون أصفر تنبعث منه رائحة الزنجبيل وهو ما يسمونه (الشداد) . وقد قالت لي جدتي أنه يشد عروق النفساء ويعيدها إلى أحسن ما كانت عليه قبل الحمل .

ثم تجيء الناطورة أم عبدو تسأل عن راحتنا . فتحمل إلينا أكواب شراب عرق السوس هدية من المعلمة ، ثم تولع لجدتي لفافة فهي على ما بدا لي زبونة مرموقة في الحمام .

كان قد حان دوري فتنحت جدتي ، وجلست مكانها ، وأسلمت رأسي إلى أم محمود لتدعكه كما تشاء ، وكما يشاء لها إتقان الصنعة . بعد أن استوفيت أفمامي السبعة قعدت أمام باب المقصورة لأستريح قليلاً ، ويحلو لي أن أتابع البلانة مروة وهي تفرك إحدى المستحمات . كانت تلبس يدها اليمنى كيساً خشناً وتروح تمرره على جسد المرأة القاعدة أمامها ، تبدأ مستأنية ثم تسرع ، فتظهر تحت الكيس فتائل رمادية صغيرة ما تلبث أن تكبر وتهرهر على الأرض .

بعد أن انتهينا من التلييف والتفريك طلبت مني أم محمود أن أعود إليها ثانية لتدعك رأسي مرة أخرى خمسة أفمام أيضاً . فاستسلمت لها لأنني آليت على نفسي أن أتم مراسم الحمام بأعدادها ومراتبها كما تقضي بذلك الأصول المتبعة ، مهما تكبدت في سبيل ذلك من مشقة . وما فرغت منها إلا حين دلقت أم محمود على رأسي آخر طاسة ماء ، بعد أن حلت فيها الترابة الحلبية التي تعطر الشعر ، وتترك أثرها فيه لأيام عديدة .

وتقوم أم محمود وتقف أمام باب المقصورة وتنادي بصوتها الخشن :

ـــ يا مروة مناشف لأم البيك .

وتقفز البـلانة مروة خفيفـة مرنة إلى باب الوسطاني وتصيح بصوت رفيع كما يصيح الديك :
ـــ أم عبدو ... مناشف لأم البيك .

ويختـلط صيـاحهـا بصيـاح أسطـة ثانيـة كانت تقف أمام مقصورة مقابلة لنا تطلب أيضاً المناشف لزبوناتها .

وتظهر أم عبدو تطقطق على قبقابها الشبراوي ، وعلى ذراعها كومة مناشف توزعها علينا قائلة :
ـــ نعيماً .. نعيماً . إن شاء الله حمام الهناء .

ثم تأخذ جدتي من تحت إبطها وتسير بها حتى البراني ، وتعينها على الصعود إلى المصطبة ، ثم تساعدها على تنشيف جسدها وارتداء ملابسها .

وتقف جدتي تنتظر دورها لتدفع الأجرة . وكان جدال عنيف يدور بين المعلمة وامرأة كهلة معها ثلاث صبايا ، وأفهم من كلامهما أن العادة جرت أن تستوفي المعلمة الأجرة كاملة من المتزوجات ، أما الأرامل والعزباوات فيدفعن نصف الأجرة ، والمرأة تدعي أنها أرملة ، وبناتها عزباوات ، والمعلمة تشك في قولها فقد رابها أن تكون كبرى البنـات عزباء وهي صبيـة ناضجة وعلى نصيب وافر من الجمال .

ولكنها اضطرت أن تقبل قول المرأة بعد أن حلفت هذه أغلظ الأيمان على صدق قولها .

وتتقدم جدتي فتدس في يد المعلمة شيئاً وهي تقول لها :
ــ الأجرة مع البارد والنطارة .

وتنظر المعلمة في يدها ثم تبتسم ، ويبدو أنها كانت راضية كل الرضا ، لأني سمعتها تقول لجدتي :

ــ الله يديم عزك يا خانم ، وعقبال كل شهر .

ثم توزع جدتي العطايا على الناطورة والأسطة والبلانة وقد خرجن من الجواني ليودعنها .

وأعترف أنني ما عرفت جدتي كريمة سخية كما عرفتها يوم حمام السوق . كانت تبدو راضية معتزة وهي تستمع إلى الدعوات تنهال عليها من اللواتي قبضن عطاياها ، ثم تتعمد أن تنظر إلي مستعلية وكأنها تقول :

هلا عرفت الآن مكانة جدتك ؟ وهلا ذكرت ذلك لأمك التي بدأت تستخف بي ؟

ثم تخرج من الحمام وهي تختال في مشيتها ، مزهوة منتصبة القامة ، وقد عهدتها في البيت تسير مستكينة محنية الظهر .

إنها الآن تمارس وجاهتها التي لم يعد يتاح لها أن تمارسها إلا في حمام النسوان .

الآن أدركت سر حمام السوق ...

الجسر

قالت صبية وضاءة كالقمر :

ـــ ما عدت أذكر كيف اندس بيننا ذلك الرجل الغريب ؟..
وما عدت أعرف كيف ، ومتى ألقينا بقيادنا إليه ، حتى أصبح يتصرف بشؤوننا كيفما يحب ويشتهي ..

كان مجرد النظر إليه يوحي أنه جاء من الجهة الثانية من المدينة ، حيث الحياة الرخية الناعمة .

كان فاتناً ، رائعاً ذلك الرجل الغريب ، كأنه قد صيغ من حلم فتاة مترفة في ليلة صيف مقمرة .

أذكر أنه نظر حوله ذات مرة في بيتنا الصغير الوضيع فرأى فقراً وعوزاً ، فلوى شفتيه وتمتم بكلام لم أفهمه ثم اغتنم فرصة وهمس في أذني :

ـــ أنت جوهرة .. لكن في غير مكانك . ثم حدق إلى عيني بنظراته النفاذة فارتبكت ، وحولت عنه نظراتي إلى الأرض .

ثم قال أشياء كثيرة لم أعد أذكر منها سوى قوله :

ـــ سأذهب بك ، وبأسرتك إلى الجهة الثانية من المدينة ، هناك الحياة تليق بجميلة مثلك .

لم أفهم مراده ، تشاغلت عنه ولم أفه بكلمة ... لم يسبق لي أن تحدثت منفردة إلى رجل قبله . اضطربت ،.. شعرت أن الدم يتدفق إلى وجهي .

قال لي الرجل الغريب فيما بعد ، أنني أصبح فاتنة شهية ، حين يتدفق الدم إلى وجنتي الشفافتين .

كانت أسرتنا كلها تحوطه ، ترحب به حين يدخل بيتنا ، تنظر إليه وكأنه ملاك هبط علينا من سماء مجهولة ليحيل تعاستنا سعادة ، وهناءة .

كان يبدو بيننا متعالياً كطاووس بين سرب من الدجاج ، وكان يمتلئ زهواً حين يرانا نمجده ، ونحرق بخورنا تحت أقدامه وكأنه بطل أسطوري .

من أجل هذا كله ، ومن أجل الدم الذي يتدفق وردياً إلى وجنتي الشفافتين كلما تغلغلت نظراته اللاهبة في جسدي البض كان يلازمنا ، حتى أوشك ألا يفارقنا .

كنت أحب أبي وأرهبه كثيراً . كان يقول لي :
ــ سأضربك إذا رأيتك تطلين من الشباك ، وسأقتلك إذا خرجت من البيت دون إذن مني .

كنت أؤمن أن من حقه أن يقتلني إذا عصيت أمره ، أو أسأت إلى سمعته أمام أهل الحي .

أمس ذبح جارنا ابنته السمراء الممشوقة ذات السبعة عشر عاماً لأنه فاجأها مع حبيبها ابن الجيران .

قال حين جيء به إلى المخفر وخنجره يقطر دماً :
ــ اصبعي عابت فقطعتها !.. فأفرج عنه بعد شهور قلائل ، وشيع في السجن بنظرات الإكبار والإعجاب !..

أنا لن أدع أبي يقطع اصبعه أبداً .. كنت أعتز به ، يخيل إلي أنه جبل شامخ صامد تستند إليه أسرتنا ، كما كنت أحسب أمي قديسة ، أما أخي فأكثر الشباب عنفواناً ومثالية .

هذه الصروح الشامخة التي بناها خيالي الغر منذ وعيت الأشياء لبنة فلبنة ، راحت تنهار بسرعة عجيبة .. منذ دخل الرجل الغريب بيتنا .

تداعى الجبل الشامخ !.. لم يستطع الصمود أمام إغراءات الرجل الغريب .. أصبح جرذاً يتوارى في أقرب مخبأ حين يعود من

عمله فيرى أمام بابنا سيارة فخمة ، ليدع الرجل الغريب يمرح في بيته كيفما يشاء !.. ألم يعد هذا الرجل أن يجعل من عسرنا يسراً ؟ ..

قال لي مرة وكنا وحدنا ، لأن أمي كانت تتشاغل في المطبخ ليخلو لنا الجو :

ــ لولاك أنت ما أتيت إلى هنا .. ومن أجلك وحدك سأفعل المستحيل .. أنا أسعد أهل الدنيا حين ترضين أنت علي ..

نمت ليلتئذٍ على أرجوحة بين غيوم شفقية الألوان .. كان طيفه يحوِّم حولي طوال الليل .. ووقع كلماته يرن في أذني كنغم حنون .. آه كم أحبه .. أهواه أكاد أعبده .. لم أعد آسف على الصروح المنهارة من حولي ما دام هو يعلو ويعلو في نظري ..

ذات مرة كنت ألوذ به كقطة أليفة ، وهو يقول لي :

ــ الآن أتممت كل شيء . بعد أيام قلائل سيكون لكم بيت جميل ، في أحسن شارع من شوارع المدينة ، وسيكون لي ولك في هذا البيت غرفة خاصة نأوي إليها أنا وأنت فلا يزعجنا أحد .. وستستقبل أمك ضيوفها وجيرانها على مقاعد وثيرة ، وسيكون لأخيك سيارة يلاحق بها فتيات الحي ، وسأجد لأبيك وظيفة مرموقة . وبعد ذلك سأنتقي لك من معارفي زوجاً غنياً يليق بحلوة مثلك .

صُعقت ...

يريد أن ينتقي لي زوجاً ؟!!..

ما عدت أدري كيف استطعت أن أكتم صراخي حين طعنتني فجأة ، كلماته الباردة الجارحة .. لقد اخترقت سمعي كأسياخ من نار .. انغرزت في قلبي كرصاصات انطلقت من مسدس مكتوم الصوت ...

كان ينطقها بلا مبالاة قتالة كأنها لا تحمل قسوة معانيها ..

تمالكت نفسي وقلت له :
ــ من قال لك أنني أريد أن أتزوج ؟؟ أنا لن أتزوج أبداً أبداً .
ورحت أكررها وأنا أرتجف كمن أصابته نوبة عصبية .

تفرّس فيّ مستغرباً . ولأول مرة أرى نظراته العذبة تستحيل إلى قسوة ولؤم بغيض . ثم قال بلهجة هادئة آمرة :

ــ بل يجب أن تتزوجي .. لقد اتفقنا على ذلك أنا وأمك وأبوك . ما كنت أنتظر أن تتمردي علي بعد أن فعلت لك ولأسرتك ما فعلت !.. ستتزوجين .. وستظل علاقتنا كما هي ، وإلا شاع خبرنا بين الناس ، وربما انتهى إلى خطيبتي ،... وهذا سيسبب لي حرجاً كبيراً . تأكدي أنني لن أتخلى عنك ، يا أحلى الصبايا أنت ...

خطيبته ؟؟!.. أله خطيبةٌ إذن ؟.. وأنا من أكون !!..

الآن سقطت الأقنعة وفهمت كل شيء !..

ما أهونني عليه !.. وما أصغر شأني عند أهلي !.. هو يريدني خليلة له ، وزوجة لرجل آخر يختاره هو لي !.. وهم يريدون أن يجعلوا مني جسراً يعبرون عليه إلى الجهة الثانية من المدينة حيث الحياة الناعمة البراقة ...

شعرت أن الدم لم يتدفق هذه المرة إلى وجنتي ، بل هبط إلى قدمي ، وأن لونه لم يعد أحمر وردياً ، لقد أصبح أصفر كالصديد !.. وأن ماءاً بارداً ، قذراً ، لزجاً يغمرني .. يكاد يخنقني ..، أمتلئ حقداً ... أمتلئ كرهاً ..

انهار الصرح الوحيد الذي بقي لي في طرفة عين !.. لم أقوَ على رؤيته ككومة رماد ، أنا التي اعتدت على انهيار الصروح من حولي !.. أطبقت عيني .. خلتني في دوامة تدور بي .. تدور .. تدور .. ثم تطوِّح بي فأهوي إلى هوة لا قرار لها ..

جسمي ينزف على مهل .. ألعق النزف قبل أن يراه أحد .. أرفض أن أجعل جسدي جسراً يئن تحت وطأة العابرين عليه ، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً !..

أتراهم يدركون ذلك ؟ .. هؤلاء الذين يريدون أن يعبروا الجسر مهما يكن الثمن ؟!.. كأن شهوتهم إلى الحياة البراقة قد أعمتهم عن كل شيء !.. مثلهم دفنوها حية في قبور مهجورة وراحوا يتعامون عن صراخها المفجع !..

كانوا حين يرونني ساهمة حزينة ينظرون في عيون بعضهم بعضاً صامتين متباهين ، ثم تلتوي الشفاه بتبرم ساخر وتقول العيون بتساؤل بليد أخرس :

ــ ماذا جرى لصبيتنا الحلوة ؟؟، ما عساها تريد أكثر من ذلك ؟ ما عهدنا بها غبية بليدة ! فلندعها وشأنها ، لا بد لها أن تعود إلى صوابها حين تذوق العيش الرفيه الرخي .. ثم يتناسونني في لحظات وهم يحلمون بالحياة البراقة التي تنتظرهم !..

يا لصروحي المنهارة !... أصبحت أشفق عليها ، ولا أحترمها !.. ولكني .. ما زلت أحبها ، هي مني ، وأنا منها !...

ولأنني أحبها سأدع الجسر ينهار ذات يوم .. في نهر الحياة الرهيب الذي طالما ابتلع الضعفاء أمثالي .

بعد سبعين عاماً

اعتادت جمعية الإحسان أن تقيم في مطلع كل عام حفلة ساهرة ترصد ريعها لما تقوم به الجمعية من أعمال الخير . وكان من تقاليد تلك الحفلة أن تقدم فيها مفاجآت طريفة للمدعوين ترغيباً لهم في مؤازرة الجمعية .

وذات عام كانت المفاجأة ممتعة وطريفة حقاً . كانت مسابقة بين عشرين صبية ، طُلب منهن أن يرتدين أثواب جداتهن القديمة حين كنّ صبايا في مثل أعمارهن ، ولم يكن هذا الأمر متعذراً ، فكثيراً ما تحتفظ بعض العجائز بأثوابهن المفضلة على سبيل الذكرى . ويعلن في الحفلة أنه ستنتخب لجنة من المدعوين لتختار أجمل ثوب ترتديه أحلى صبية لتمنحها الجمعية جائزة ثمينة .

ويحين موعد المفاجأة فإذا الصبايا العشرون يتبخترن بين المدعوين بأثواب جداتهن ذات الطراز القديم ، فيعلو الضحك ويسود

الحفــلة جو من المـرح ، لا سيا حـين راح بعض الشبــاب يرمي المتسابقات بنكات لاذعة ، أو تعليقات تثير الضحك ، لأن أكثر الصبــايا كن يرتدين أثواباً عتيقـة ، قد أتى البلى على بعض أجزائها وأحال القدم ألوانها . إلا واحدة منهن كانت ترتدي ثوباً يبدو جديداً وكأنه لم يلبس أبداً وقد فصل على قدها تماماً مما أثار دهشة المشاهدين وإعجابهم وكان الثوب رائعاً حقاً ، على غرار أثواب أميرات أوروبا في القرن التاسع عشر . وكان قماشه من المخمل الثمين ، فضي اللون قد وشّته أزهار ذهبية شديدة البريق ، متقنة التطريز ، وقد انحسر الثوب عن عنق الصبية الأتلع ، وكتفيها المستديرتين ، وضاقت أكمامه حول ذراعيها وانحدرت حتى معصميها فبدا انسياب الذراعين حلواً لطيفاً ، كما التصق الثوب بخصرها النحيل المشيق الذي شد عليه زنار ذهبي عريض ، ثم انساب الثوب فضفاضاً من الأمام يكاد يمس الأرض ، وامتد إلى الوراء ذيلاً طويلاً مطرزاً بما يشبه ذيل الطاووس تماماً . وكان هذا كله يضفي على صاحبته مهابة أميرة تخطر في قصر عريق ، وما لبثت اللجنة أن حكمت لها بالجائزة الأولى ، فراح الجمهور يصفق لهذا الحكم العادل بحماسة .

وكانت أم الصبية الفائزة تجلس مع صديقات لها حول إحدى الموائد ترمق ابنتها الفائزة بنظرات حنان واعتزاز يشوبها شيء من الأسى والحزن ، مما حدا بإحدى صديقاتها أن تقول لها :

ــ ما لك تجلسين هكذا صامتة كئيبة ؟ كأنك والله لست أم

الصبيـة الفـائزة .. وكأني أرى عينيك تدمعان أيضـاً . لا شك أنها دموع الفرح ...

فابتسمت الأم وقالت :

ـــ أوَتجدينها فرحة تثير الدموع ؟؟ وما أنا ممن يقمن وزناً لمثل هذه التوافه . ولكن لا أخفي عليك أن هذا الثوب قد اثار الآن في نفسي ذكرى مؤلمة . تذكرت أمي ، صاحبته ، تمنيت والله‌لو أنها لا تزال حيـة لترى ثوبها العزيز ، الذي حُرِّم عليهـا ارتداؤه ، وقد ظل مخبوءاً في صندوقهـا سبعـين عاماً قد كُتب له أخيراً أن يظهر أمام الناس ، وأن يفوز على غيره من الأثواب في حفل كبير كهذا الحفل ، وأن ترتديـه ابنـتي أحب حفيداتها إلى قلبهـا ، وآثرهن لديها ، وتقول إحداهن :

ـــ لا شك أن لهذا الثوب حكاية غريبة كم نحب أن نسمعها منك .

قالت أم الصبية :

ـــ بل لعلها مأساة ، وسأرويها لكن لترين إلى أي مدى كانت جداتنا ، وأمهاتنا المسكينات خاضعات لتقاليد وعادات لا نصدقها نحن بنات هذا الجيل .

كانت أمي وحيدة أبويها ، فأفرطا في تدليـلها ورعايتها ، ولما بلغت الرابعـة عشرة من عمرها تزوجت من أبي وانتقلت من بيت

أبيها ، من حياتها الهانئة الوادعة لتعيش مع أسرة زوجها كما كانت تعيش الكنات في بيوت أحمائهن في ذلك العصر . وكانت أسرة زوجها كبيرة العدد ، عدا عن أمه وأبيه كان له ثلاث أخوات عزباوات ، وأربعة إخوة مع زوجاتهم وأولادهم الكثر . وكانت الحماة التي هي جدتي تدير شؤون الأسرة وحدها ، تدبر أمورها بكثير من الحنكة والدراية . وكانت تحرص كل الحرص لأن تتصرف بحكمة فتحقق العدل والإنصاف بين بناتها وكناتها وحفدتها . وجرت العادة أن تكسو أفراد أسرتها الكبيرة مرة أول الصيف ، ومرة أول الشتاء فلا تميز واحدة عن أخرى ابنة كانت أم كنة . وكان على الصبايا أن يرضين بما تختاره لهن ربة البيت سواء أعجبهن الاختيار أم لم يعجبهن وقد جعلت لكل من الصبايا دوراً تقوم فيه بأعباء العمل في تنظيف البيت وترتيبه . وكان الأبناء يعملون بالتجارة مع أبيهم . وكان له وحده حق التصرف بالمال . وهو يعيل الأسرة كلها ، شأن أكثر أرباب الأسرة الدمشقية في الماضي . فسارت أمور الأسرة كأحسن ما يمكن أن تسير أمور أسرة في مثل ظروفها . وإن كان الأمر لا يخلو أحياناً من مشكلات أو مكائد تثيرها الغيرة بين الصبايا من بنات وكنات . ولكن ما أسرع ما كانت تزول عندما تعالجها الحماة القارحة بما فطرت عليه من خبرة ودراية . وكانت العادة المتبعة آنئذٍ ألا تخرج الكنة من البيت إلا وترافقها حماتها وفي مناسبات الأفراح والأتراح فقط . أما حين تذهب لزيارة أهلها مرة في كل شهر فكانت

تصطحب معها أولادها ، وقد تمتد الزيارة عادة ثلاثة أيام كاملة ترفه الكنة عن نفسها بعد رتابة العيش في بيت حميها .

أما أمي المسكينة فقد حرمت من هذه المتعة وذلك لأن أبويها كانا قد سافرا إلى اسطنبول بعد زواجها بسنتين حين انتقل أبوها بحكم وظيفته إلى هناك . وكانت أمي تجيد القراءة والكتابة ، وكان هذا نادراً بين نساء عصرها . فكانت تراسل أبويها بين حين وآخر فتشكو إليهما لوعة الفراق ، ومرارة الوحشة ، وتصف لهما ما تلقاه من عنت وغبن ، وكل ما يمر بها من فرح أو حزن .

وذات مرة كتبت إليهما تخبرهما أن كبرى بنات حميها قد خطبت ، وسيقام لها حين تتزوج عرس حافل .

وأحب الأبوان اللاهفان على فراق ابنتهما الوحيدة أن يرفِّها عنها في وحشتها ، ففكرا طويلاً ما عساه يفرح فتاة في السادسة عشرة من عمرها ؟

ويقع اختيارهما على هذا الثوب الرائع . ولعله كان أثمن وأحلى ما وُجد من أثواب النساء في اسطنبول عاصمة الأناقة في الشرق آنذاك . فقد دفع أبوها ثمنه خمسين ليرة ذهبية . ولم يكن غنياً فاضطر أن يستدين ليحقق ما ابتغاه من تكريم ابنته وقد خيل إليه أنها ستعتز كثيراً عندما يصبح ثوبها مدار حديث نساء المدينة .

كانت أمي تصف لنا شعور الفرح الذي اعتراها حين وصلتها

الهدية غير المنتظرة فراحت تنادي جميع أهل البيت لتريهم إياها . إلا أنها لم ترتح أبداً حين تبيَّنت الامتعاض بادياً على وجه حماتها . وما لبثت الحماة أن نادتها إلى مخدعها وقالت لها :

ــ يا بنتي لا يجوز لك أن تلبسي هذا الثوب في بيتنا . نحن ليس في استطاعتنا أن نشتري نظيره لبناتنا وكناتنا . وقد اعتدنا في هذا البيت كما تعلمين ألا نميز واحدة منكن على سواها .

بهتت أمي وقالت متعجبة :

ــ كيف لا يجوز لي أن ألبسه ؟؟ إنه هدية من أبي ، وليس لدي أجمل منه ..

قالت حماتها :

ــ أما كسوتكن من أجل حفلة العرس من قماش (مزاريب الذهب) ؟ وهو أغلى قماش نزل إلى أسواق دمشق هذا العام ؟ فلمَ لا تلبسين كغيرك من صبايا الأسرة ؟

ولأول مرة تتمرد أمي على حماتها فتقول لها جازمة :

ــ والله العظيم لن ألبس غيره مهما قلت .. وما عساي فاعلة به إن لم أرتده يوم العرس ؟..

أجابتها حماتها :

ــ تستطيعين أن تلبسيه في مخدعك ، وأمام زوجك فقط .

قالت أمي :

ـــ ولكنه من الطراز الذي لا يلبس إلا في الأفراح والحفلات الكبرى . ولم يرسله إلي أبي لأرتديه في غرفة صغيرة كغرفتي قد لا تتسع لذيله الطويل . عندئذٍ انصرفت عنها حماتها غاضبة . لأنها لم تعتد هذا التمرد من كنة ، وظلت تروح وتجيء في باحة الدار غاضبة تنتظر مجيء ابنها من عمله لتنفرد به وتتحدث إليه في هذه المشكلة قبل أن يرى زوجته ، والهدية التي جاءتها من قبل أهلها خوفاً من أن يقتنع برأي زوجته . ولما عاد من عمله نادته إلى مخدعها ، وعرضت عليه المشكلة وقالت له فيا قالت : أيعجبك أن تُظهرنا زوجتك أمام الناس أقل شأناً من أهلها ؟

أيرضيك يا بني أن ينتقدنا الناس فيقولوا إن ثوب زوجتك أثمن من ثوب أختك يوم دخلتها ؟

أيهون عليك أن تثير زوجتك غيرة زوجات إخوتك ، فينغصن حياة أزواجهن ؟

لقد نصحتها أن ترتديه في مخدعها ، ومن أجلك أنت فقط لتجنبنا مشكلات نحن في غنًى عنها فأبت أن تنصاع لنصحي ، ولم تحفل بكلامي أبداً ، أنا حماتها وكبيرة الأسرة !.. بل حلفت أن ترتدي الثوب يوم العرس لأنه هدية من أهلها ... إنها يا بني وقحة وعنيدة ، أعانك الله عليها ، تدبر أنت أمرها بمعرفتك فما ربيتك إلا رجلاً ..

وما كان أبي ليرد طلباً لأمه ، لأن أخشى ما يخشاه هو غضبها الذي يغضب الله . فقام من لدنها فوراً بعد أن امتلأ غيظاً على زوجه ودخل مخدعها بوجه متجهم فإذا هي تخلع ثيابها على عجل لترتدي الثوب الرائع وتفاجئه به .. فإذا هو يقول لها دون أي سؤال أو جواب ، ودون أن ينظر إلى الثوب :

ــ علي الطلاق ثلاثاً لن ترتدي هذا الثوب أبداً ... ما كنت لأغضب أمي من أجل ثوب أهداه إليك أهلك .

شهقت أمي من قوله مرتاعة ، وكادت تجن من القهر . ولكنها خرست !.. ما عساها فاعلة تجاه يمين الطلاق القاطع !..

وترتمي الصبية ذات الستة عشر عاماً فوق الثوب الرائع ، وتروح تقبله وتبكي ملتاعة ، حتى إذا انتصف الليل تقوم مغلوبة على أمرها تطوي الثوب ثم ترمي به في قعر صندوق عتيق ، وتقعد قبالته تندبه ، وكأنها تندب ميتاً عزيزاً في نعشه !.. وكم تمنت أن ترتديه ولو مرة واحدة ، كانت أمي تقول لنا حين تروي هذه الحكاية :

كم خطر لي أن أمزق الثوب شقفاً نتفاً ، ولكن فكرة شيطانية راودتني . قلت في نفسي :

سأحتفظ بهذا الثوب في مكان أمين لا تطوله يد ، ولن أفرِّط به أبداً ، فإذا ضقت ذرعاً بهذا الرجل الذي هو والدكن ، ليس أسهل علي من أرتدي الثوب فأصبح طالقاً في لحظة .

ـــ أما لو جرت هذه القصة معي لارتديت الثوب فوراً ...

أجابت راوية القصة :

ـــ ولكن أمي عاشت مع أبي خمسين عاماً لم يخطر لها أبداً أن ترتدي الثوب . وكثيراً ما كنا نراها تخرجه من صندوقها فتتفرج عليه ، وتعنى به ، وتعرضه للشمس والهواء خوفاً من أن يأكله العث . ثم تروح تروي حكايته لمن هم حولها بلوعة وأسى . كأنها قد حدثت بالأمس القريب . وكم أصرت علينا نحن بناتها الثلاث أن ترتديه إحدانا في حفلة ما ، ولكن واحدة منا لم تحقق لها أمنيتها هذه ، لأن طراز الثوب كان قد بطل حين أصبحنا صبايا ، وما كان في زماننا أمثال هذه المسابقات الطريفة .

من أجل هذا حزنت وبكيت ، تمنيت لو أن أمي ما تزال حية لترى ثوبها العزيز الغالي قد قدِّر له أن يلبس في حفل كبير ، وأن يفوز بالجائزة الأولى بعد أن ظل مخبوءاً في قعر الصندوق سبعين عاماً ...

الحنان غلّاب

قالت لها صديقتها تواسيها وتخفف عنها :

ـــ لا يجوز لك أن تيأسي ، أنت صبية لم تتجاوزي الخامسة والعشرين من عمرك ، وقد عرفت نساءً حبلن بعد عقم دام عشرين سنة .

أخرجت الصبيـة اليائسـة منديلها من محفظتها ومسحت به دموعها وقالت بصوت متهدج :

ـــ سبع سنوات مضت على زواجي لم أترك خلالها طبيباً في البــلد إلا استشرته ، والذي يؤلمني أن واحداً منهـم لم يجد فيَّ علة ليداويها ، لقد أجمعوا كلهم على أنني سليمة ، لست عقيماً وكذلك زوجي . قاطعتها صديقتها قائلة :

ـــ في الطبيعة أحياناً حالات يقف أمامها الطب عاجزاً ولا يجد لها تفسيراً ، بينما يفلح في معالجتها بعض المشايخ ، أو الدايات من ذوات الخبرة والتجارب . لو أنك استمعت إلى نصحي ، ورضيت أن

تذهبي معي إلى الشيخ مرزوق ليداويك لكان الآن في حضنك طفل ، أو لكنت حاملاً ، فمنذ أكثر من سنة وأنا ألح عليك بذلك وأنت تتهربين مني .

ــ كلما فكرت بعلاج الشيخ مرزوق هذا يكاد يغمى علي سلفاً من الخوف ، كيف يمكنني أن أدعه يطوق خصري بإحدى أفاعيه الرهيبة ، أنا التي يقشعر جسمي من رؤية حشرة صغيرة ؟

ــ لا داعي لخوفك هذا أبداً .. لأن الشيخ مرزوق يربي أفاعيه ويدربها خصيصاً لهذا الغرض ، فهي لا تؤذي أبداً ، ولم نسمع أن واحدة من النساء اللواتي عالجهن أصيبت بأي أذى .

ــ أجدني سأغامر اليوم وأذهب معك إليه ، وليحدث لي ما يحدث ، إن الموت أهون من القهر الذي دخل على قلبي ليلة أمس .

ــ خير إن شاء الله !.. هل في نية زوجك لا سمح الله أن يتزوج عليك أو يطلقك ؟؟

لا لا ، لم ألاحظ عليه شيئاً من هذا . لكن حدث لي أن ذهبت البارحة لأهنئ ابنة عم لي بمولودها الرابع ، وقد حملت معي للمولود ثوباً جميلاً انتقيته من المجموعة التي أحتفظ بها ، لأن هوايتي المفضلة هي أن أجوب الأسواق ــ كلما وجدت لي متسعاً من الوقت ــ لأنتقي منها ما يروق لي من ثياب الصغار ، ولعبهم الثمينة ، وأشيائهم الحلوة ثم أضعها في مخبأ من بيتي لا تصل إليه يد ، فإذا

خلوت إلى نفسي أخرجتها وصففتها أمامي ورحت أتفرج عليها وأتحسسها بلهفة وحنان فأجد في ذلك متعة لا تعدلها متعة . وقد اخترت أحلى ثوب في المجموعة لأقدمه هدية لمولود بنت عمي هذه التي أحبها كثيراً . ما كدت أدخل غرفة النفساء حتى اكفهرَّ وجه أمها ، وراحت تتمتم وتقرأ قل أعوذ برب الفلق ، فلما وصلت إلى قوله : ومن شر حاسد إذا حسد ، نفخت في ابنتها ووليدها خشية أن أحسدهما أنا العاقر التي لم أرزق ولداً ! صُدمت ، وارتبكت أمام الزائرات ، وشعرت بمهانة ، حتى خطر لي أن أحمل هديتي وأعود من حيث أتيت وآليت على نفسي ألا أزور بعد اليوم نفساء ولو كانت أختي من أمي وأبي .

ــ امرأة عمك هذه امرأة خرفة لا يهمك أمرها .

ــ لم ألبث في زيارتي إلا قليلاً ، ثم رجعت إلى بيتي وأنا أشعر بتعاسة لا مزيد عليها ، وما أكاد أدخل البيت حتى أسمع ضجيجاً ، وضحكاً ، وجلبة أولاد صغار ، فإذا زوجي يلاعب أولاد أخيه السبعة الذين جاؤوا لزيارتنا مع أمهم أثناء غيابي عن البيت ، وما أدري كيف اهتدى زوجي إلى اللعب والأشياء المخبوءة فأخذها ووزعها على أولاد أخيه الذين تحلقوا حوله وراحوا يلعبون معه . كان يبدو بينهم سعيداً كما لم أعرفه هكذا أبداً . حاولت جهدي أن أخفي امتعاضي فلم أفلح . ولاحظت ذلك زوجة أخيه فأرادت أن تكيدني فابتسمت بخبث وقالت :

ــ مسكين زوجك كم يحب الصغار ! منذ أكثر من ساعتين وهو يلاعب أولادي دون أن يمل ، لقد ضجرت أنا منهم ولم يضجر هو ، ولا أدري من أين جاء بهذه اللعب الحلوة والأشياء الثمينة التي أعطاها لهم ، أسأل الله أن يرزقه ولداً ...

قالت صديقتها :

ــ أعرف سلفتك هذه .. إنها امرأة لئيمة . أقسم بالله أنها لا تريد أن يرزق زوجك ولداً لتؤول ثروته الطائلة إلى أولادها .

ــ أعرف ذلك ، حتى خطر لي أن أخطب لزوجي أنا بنفسي وأزوجه عسى أن يرزق ولداً من امرأة غيري نكاية بزوجة أخيه هذه .. ولكن لم ألبث أن تخيَّلت الضرة تخطر في بيتي ، وتختلي بزوجي فكاد عقلي يطير من رأسي .

ــ يا لك من مجنونة ! ... من يأتي بالدب إلى كرمه ؟ أحسن ما تزوجي زوجك قومي معي لنذهب إلى الشيخ مرزوق عسى أن يجعل الله الخير على يديه .

وتلقي بقيادها إلى صديقتها فتأخذها هذه وتسير بها في حواري دمشق القديمة ، وما زالتا تدخلان في حارة وتخرجان من أخرى حتى انتهتا إلى حارة ضيقة كثيرة الالتواءات تنبعث منها رائحة العفن والرطوبة ، في صدرها باب قصير متواضع ، دفعته صديقتها فانفتح على مصراعيه ، وسارت أمامها في دهليز معتم انتهى بهما إلى

دار فسيحة في وسطها بحرة كبيرة ، وفي صدرها ليوان جلس على حشية فيه الشيخ مرزوق وراح يداعب بيده سبحة طويلة ، ما كاد يراهما حتى وقف يرحب بهما . كان قصير القامة ذا لحية سوداء طويلة ، يرتدي جبة سوداء سابغة وعلى رأسه لبادة طويلة كوَّر عليها عمامة خضراء ، كانت تشع من عينيه نظرات مخيفة وقحة . راحت صديقتها تشرح له أمرها فقال لها بتعالٍ : إنه ليس بحاجة إلى هذا الشرح ، سيعاينها بنفسه ويعرف كل شيء . وأخذ ينظر في عينيها ، ويتحسس بيديه رقبتها وثدييها وردفيها ، ثم يتحول ويقول :

ــ حالتها صعبة جداً !.. هذه لن يشفيها إلا أبو الليل ..

سألته مرتاعة :

ــ من هو أبو الليل هذا ؟؟

ــ ألم تسمعي به ؟ الحنش الأسود المشهور الذي جئت به من غابات الهند لهذا الغرض . إن إخراجه من وكره صعب جداً ، فهو لن يخرج منه إلا بسبع ذهبات انكليزية .

قالت صديقتها :

ــ نحن لا يهمنا المال يا شيخ مرزوق ، المهم أن تشفى على علاجك .

ــ قلت لك سأخرج لها (أبو الليل) . الذي لم يخيب ظني أبداً .

ــ على بركات الله إذن .

كانت هي تسمع ما يدور بينهما ولكنها لا تعي ما تسمع ، لأنها شعرت بدوخة ، وكأن طبولاً راحت تضج برأسها .

وإذا الشيخ يذهب ويغيب قليلاً خلف أحد الأبواب ثم يعود وفي يده كيس كبير فيه شيء يتخبط ويتلوى ، ما كادت تراه حتى جف ريقها ، واصفر وجهها وراحت ترتعد فرائصها ، وعلى الرغم من ذلك كله صممت ألا تتراجع . كانت صديقتها تسندها كي لا تقع وتشجعها وتهوّن عليها الأمر . ويطلب منها الشيخ أن تتخفف من ألبستها ما أمكنها وترفع يديها إلى الأعلى . فتمتثل إلى أمره وتخلع ثيابها إلا من غلالة رقيقة ، وتغمض عينيها ، وترفع يديها إلى الأعلى كالمصلوب ، وتستسلم إلى الشيخ الاستسلام كله .

ولما سمعت فحيح الأفعى ، وشعرت بشيء بارد لزج ما يكاد يلمس خصرها حتى يلتف حوله بسرعة غريبة ، ويضغط بشدة . فتشعر أن روحها تنسلخ من جسدها فيغمى عليها حتى لم تعد تعي شيئاً . ولما بدأت تصحو من إغمائها وجدت نفسها ممددة على اريكة في الليوان ، وصديقتها والشيخ مرزوق يقفان أمامها يرشان وجهها بماء الزهر ويفركان يديها وقدميها ، وقد اختفت الأفعى ، فراحت تسترد وعيها شيئاً فشيئاً ، وإذا الشيخ يهنئها ويطمئنها لأن إغماءها دليل واضح على أن رعبها قد بلغ أقصاه ، ويؤكد لها أن النساء اللواتي يغمى عليهن عندما تطوق الأفاعي خصورهن لا بد أن يحبلن مهما طال أمد عقمهن .

وتبعث كلمات الشيخ في نفسها أملاً كبيراً ، فتثق به كما لم تثق بأحد من الأطباء ، أو القابلات .

* * *

ويدور الشهر دورته ، وتكتشف أنها حامل فتحمل البشرى إلى زوجها ، وتقص عليه حكايتها مع الشيخ مرزوق ، فيعجب من جرأتها ويؤنبها على مغامرتها ، ثم ينصحها أن تكتم خبر حملها حتى تتأكد منه كي لا يتحدث بها الناس ، ويشمت الأعداء .

ويدور الشهر دورته مرة ثانية ، وثالثة ، فينتفخ بطنها ، ويضخم ثدياها ، وتشعر بغثيان الوحم ، وكانت سعيدة بذلك كله تتحمله مطمئنة راضية .

ويخطر لها ذات يوم أن تذهب إلى طبيبها لتستشيره كما هي عادة كل حامل . وبعد أن يفحصها الطبيب الشاب يقول لها بهدوء وثقة يشوبها شيء من غرور العلم عند الشباب :

ـــ يؤسفني يا سيدتي أن أقول لك أنك لست حاملاً !..

وتشهق شهقة عالية ثم تصرخ في وجهه :

ـــ ماذا تقول ؟؟ أنا لست حاملاً ؟!.. ثم تبتسم هازئة به وتشير إلى بطنها وتقول له :

ــ ألا ترى علائم الحبل بادية علي ؟ كذلك أشعر بجميع عوارضه .

ــ قد يحدث هذا كثيراً ، ونحن نسميه الحبل الوهمي .

ــ الحبل الوهمي ؟ هذه أول مرة أسمع به .

ــ الوهم يا سيدتي يفعل العجائب . إنه يمرض ، ويشفي ، ويميت أحياناً . فلا تعجبي إذا جعلك تشعرين بالحمل حتى تظهر علائمه عليك . وإذا كنت في شك من قولي هذا فسنجري لك الفحص المعتاد وبعد أربع وعشرين ساعة تستطيعين أن تتيقني من أمرك ، وإن كنت أنا واثقاً من قولي هذا كل الثقة ولكن لتطمئني أنت .

ويُجري لها الفحص الذي تذهب ضحيته أرنبة صغيرة ، وتظل أربعاً وعشرين ساعة في دوامة من الخوف والقلق لا تأكل ولا تنام ، كانت مكوَّمة في زاوية غرفتها تحيط بطنها بذراعيها كأنها تضم جنينها ، وتخشى أن ينتزع منها . وتجيء نتيجة الفحص مؤيدة لقول الطبيب !.. فتبكي بلوعة أم ثكلى فقدت وحيدها ، وكأنه قد كتب عليها أن تعرف الثكل قبل أن تعرف الأمومة .

ويروح زوجها يهوِّن عليها الأمر ، وتارة يؤنبها ، لقد رضي هو بهذا العقم ، فما لها هي لا ترضى به ؟

ويعتريها يأس يقطع كل أمل لها بالحمل ، فلم تعد تفكر بأي

علاج مهما قيل لها عنه بعد علاج الشيخ مرزوق الرهيب ، وتمر الأيام سراعاً فيستحيل يأسها إلى حزن هادئ تستسلم إليه راضية بحكم القدر .

وذات ليلة باردة ، وبعد مضي عشرين سنة على زواجها ، تستيقظ في منتصف الليل على رنين الهاتف المتواصل فتهرع إليه مرتاعة وترفع السماعة إلى أذنها ، فإذا صوت امرأة يقول لها بلهفة وتوسُّل :

ــ أرجوك يا سيدتي أن تسرعي وتفتحي باب دارك فستجدي أمامه هدية إليك من أم بائسة ، يائسة ، إنها أمانة في عنقك ... ويغلق الهاتف .

تعيد السماعة إلى مكانها مذهولة ، يساورها خوف ، أهي حيلة مدبرة لتفتح الباب أمام لص أو مجرم ؟

إلا أن حنان صوت المرأة ، ولهفتها بعثا فيها كثيراًمن الاطمئنان . فتسرع إلى الباب تفتحه وتضيء النور ، فإذا هي ترى على عتبة الباب لفافة صغيرة فيها شيء يتحرك ، وترفع اللفافة وتزيح عنها غطاءً شفافاً فيبرز لها وجه صغير فيه عينان صغيرتان تدوران في محجريهما ثم تستقران عليها ، ويخيل إليها أن العينين الصغيرتين تتوسلان إليها .

يخفق قلبها وهي تتأمل الوجه الصغير فترفع اللفافة عن الأرض

وتضمها إلى صدرها بشوق وحنان ، ثم تسرع إلى زوجها فتوقظه من نومه ، وتريه اللفافة ، وتقص عليه حديث الهاتف فتتملكه دهشة ، وحيرة ، ويطلب منها أن تفك اللفافة فإذا هي بنت ، قدّرا لها من العمر ثلاثة شهور . وراحت الصغيرة تمطمط يديها ، وترفس الهواء برجليها غير آبهة بشيء ، ثم تنقِّل نظراتها المتوسلة بينهما ، ثم تبتسم ، وإذا هما ينطقان بصوت واحد :

ــ ما أحلاها !..

وتقول الزوجة :

ــ لقد أحببتها منذ وقع عليها نظري ، سنعتني بها كما لو كانت ابنتنا ، أليس كذلك ؟

ويجيب الزوج متبرماً :

ــ وهل لنا مفر من ذلك وقد فرضت علينا فرضاً .

ــ يا له من فرض رائع ... سأسميها سلوى ، وستكون سلواي .

منذ تلك الليلة لم يعد لديها شاغل سوى الصغيرة سلوى ، حتى لم تعد تخرج من البيت إلا نادراً ، كلما انتهت من عملها فيه تقعد مع الصغيرة تناغيها وتلاعبها ، تحيك لها الملابس ، وتخيط الثياب ، وتجد في ذلك كله لذة ومتعة ، وتعجب كيف لم يخطر لها

أن تتبنى ولداً يملأ فراغ حياتها ، ويبدد سأمها . ويمضي أسبوعان وإذا زوجها يقول لها ذات صباح بلهجة آمرة ، وعزم لا ينثني :

ــ اسمعي مني يا امرأة ما أقوله لك ، وفكري جيداً ، وكوني عاقلة .. لقد قصصت أمر هذه الطفلة على صديق لي فنصحني وبصَّرني بأمور كنت عنها غافلاً . قال لي فيما قال :

ــ من يدري ربما جاء أبوا هذه الطفلة بعد حين وأخذاها منكما بعد أن يتولَّع بها قلباكما ، ولن تستطيعا منعهما أبداً . وسيذهب جهد زوجك وتعبها هباءً . فأنا أنصحك أن تسلمها إلى الشرطة وتأخذ وصلاً بسلامتها درءاً للمشاكل . وإذا شاءت زوجك أن تتبنى ولداً فلتختره صبياً مجهول الأبوين ، فالصبيان في نظري أقل مشاكل من البنات ، وليس العثور على مثل هذا الصبي بالأمر العسير . فوجدت قوله صواباً ، فما رأيك أنت ؟ وترتاع الزوجة من قول زوجها ، ولم تقنع به أبداً ، ولم ترضَ أن تتخلى عن سلواها ، فتقول لزوجها جازمة :

ــ هذه البنت أمانة وضعتها أمها في عنقي فكيف تريدني أن أتخلى عنها وأخون الأمانة ؟

غير أن الزوج كان عنيداً قاسياً ، لا يثنيه عن عزمه شيء . فلما وجد زوجته متشبثة برأيها ، وما من سبيل إلى إقناعها ، هجم عليها وانتزع الطفلة من حجرها غير آبه بدموعها وتوسلاتها ، وذهب بالطفلة إلى حيث شاء .

ولما أغلق الباب خلفه شعرت المرأة أن شيئاً انتزع من قلبها فبكت طويلاً ثم استسلمت صابرة إلى الحزن ، فقد اعتادت على عنت زوجها هذا عشرين سنة كاملة .

ولما كان المساء وعاد الزوج إلى بيته رأى عيني زوجه منتفختين محمرتين من كثرة البكاء ، تنظر إليه صامتة تنم نظراتها عن حزن وعتب ، وموجدة ..

فلام نفسه على قسوته تلك وراح يستعطفها ويقول لها : إنه فعل ما فعل رحمة بها ، وخوفاً عليها من أن تصدم إذا أُخذت منها الطفلة فالأمر أهون منه الآن بعد حين ،لأن ولعها بها سيزداد يوماً فيوماً .

ولما ضمهما فراش واحد في تلك الليلة راح يسترضيها ويغازلها ويفتن في مغازلتها ، ولكنها كانت في شغل عنه ، هو يفكر فيها ، وهي تفكر بالصغيرة التي انتزعت منها قسراً ، بالعينين الصغيرتين المتوسلتين ، بالقدمين الطريتين اللتين ترفسان الهواء كلما فكت عنهما اللفائف ، باليدين اللتين تشبثتا بها حين انتزعت من حجرها ، كانت تتذكر ذلك كله فتشعر أن قلبها ينفطر لوعة وحنيناً ، وتمتلىء عيناها بالدموع فتغمضهما خشية أن يراها زوجها تبكي وهو في عز نشوته .

ويدور الشهر دورته بعد تلك الليلة فتنكر من أمرها شيئاً ،

ويدور الشهر دورة ثانية فيزداد عجبها ، وتذهب إلى طبيبها تستشيره وهي تظن أن حزنها على الطفلة قد سبب لها ما تشكو منه . فتروح تقص على الطبيب أمرها ، فلم يحفل بكلامها ، بل راح يفحصها ويدقق في فحصه أكثر منه في كل مرة ، ثم يرفع نظارتيه عن عينيه ويقول لها مبتسماً بلهجته الواثقة :

ــ يسرني أن أقول لك أنك حامل دون أي شك أو ريبة هذه المرة .

وتكاد تصعق دهشة ... فتقول له :

ــ أتسخر مني يا دكتور وأنت تعرف من أمري ما تعرف ؟. بعد عقم دام عشرين سنة ، يتأتى لي أن أحمل ؟؟

ــ هذا ما يحيرني ويدهشني أنا أيضاً. لكن في الطبيعة يا سيدتي أساراً يقف أمامها العلم عاجزاً ولا يجد لها تفسيراً. من يدري لعل حنانك على الطفلة أيقظ فيك شيئاً كان غافياً لم تستطع علاجاتي ، ولا أفعى الشيخ مرزوق الرهيبة أن يوقظا فيك ما أيقظه الحنان ....

وشت بها العصافير

سكون مفجع يخيم على الغرفة . هو جالس في سريره كتمثال نصفي نُحت لكبرياء الألم الصامت ، لبطولة الصبر ... غطاء أبيض أُسدل على ركبتيه ، مأساته تكمن تحت الغطاء ، تتجسد في ساقيه المشلولتين ، المستلقيتين أمامه كجثتين باردتين ، وجهه ما زال جميلاً ، بل لعله أكثر روعة مما كان عليه ، على الرغم من مضي سنتين كاملتين على مأساته . لقد زاده النحول رقة ، والحزن الهادئ وداعة ، فبدت عيناه السوداوان ذات الأهداب الطويلة في وجهه الشاحب كعيني طفل ضائع يستجدي بنظراته التائهة العطف والحنان ممن هم حوله . زوجه جالسة على كرسي قبالته تماماً ، تفور فيها العافية ، ويتألق الصبا في بشرتها الناعمة الملساء . كان لا بد لها كل يوم بعد الغداء ، بعد أن تفرغ من شؤون البيت ، أن تجلس أمامه ، على الكرسي ذاته ، في المكان ذاته ساعة أو تزيد ، وكأنها تؤدي له وظيفة

رسمية ، كانا يحاولان صادقين أن يحطما جدار الصمت الذي راح يرتفع بينهما شيئاً فشيئاً منذ أكثر من شهر ، منذ عاتبها لأنها تكثر الخروج من البيت وتدعه لضجر الوحدة ، وسويداء الحزن . كان كلما عاتبها تنتحل له الأعذار ، ثم تظل تسترضيه حتى يرضى . فما بالها هذه المرة لم تجبه بكلمة ؟ لم تحاول أن تبرر موقفها منه ؟، كان جوابها دموعاً غزيرة طفرت من عينيها ، ثم برحت الغرفة وانزوت في مكان من البيت . لم يرها حتى ميعاد العشاء حين حملت إليه عشاءه ، وجلست أمامه ، لم يتبادلا من الحديث إلا كلمات لا غنى عنها . ولما كان اليوم الثاني عاودت الخروج من البيت كعادتها غير آبهة به . ويتلقى تحديها بصمت ذليل شاعراً بعجزه . لا يحق له أن يفرض إرادته عليها كزوج سليم .

الحقد الأسود يتسلل إلى الأعماق . كلمات جارحة تدور في ذهن كل منهما . تتحفز لتنطلق .. تموت على الشفاه خوفاً من موقف حاسم يتهيبه كل منهما .

هي قاعدة أمامه على الكرسي ذاته ، في المكان ذاته ، نظراتها مسمرة على الأرض تحملق في رسوم السجادة كأنها تراها لأول مرة :

ــ يريدني أن أحرق شبابي بخوراً في معبده !.
ــ إنه صليبي الذي آليت على نفسي أن أحمله عمري .
ــ لَمَ لا يُعينني هو على هذا الحمل قبل أن أنوء تحت ثقله ؟؟.

ــ يظن نفسه متسامحاً ، واسع الصدر ؟.
ــ إنه أكبر أناني .
ــ كلما خرجت من البيت تربد سحنته ويلوذ بالصمت .
ــ سأصمت أنا أيضاً لأرى أينا بحاجة إلى الآخر ؟
ــ ألا يكفيه أن أخدمه ؟.. أيظن أن خدمة عاجز مثله أمر سهل ؟!...

هو يراقبها من طرف خفي ، يتحرق عندما يراها تتحاشى النظر إليه ، كأنها تخفي عنه سراً تخشى أن يقرأه في عينيها ، محال أن يستشف شيئاً من قسمات وجهها التي أصبحت جامدة لا تعبر عن شيء . تكرار تثاؤبها بمضٍّه، يرهقه . إنه دليل واضح على ضجرها ، وضيقها المكبوت . تنظر إلى ساعتها ، آن أوان ذهابها ، يطوف على فمها ظل ابتسامة ما يلبث أن يتلاشى ، تظل قاعدة مكانها دون أن تتحرك .

يتنهد ويزفر زفرة طويلة . يدير وجهه نحو الشباك :
ــ أين أنت يا صديقي سعيد ؟ لمَ سافرت بعيداً عني ؟؟ تعال لأشكو لك عذابي ! لقد وقعت فيما تنبأت لي به .. قبل عام استقدمتك إلي أثناء غيابها عن البيت ، وقلت لك : لقد صممت أن أهب ثروتي كلها لامرأتي ، لا أريد إذا مت أن يشاركها بها أحد ، فأرجوك أن تقوم أنت بما يلزم لذلك دون أن تعلم هي ، لأني أحب أن أجعلها مفاجأة . حملقت في ذاهلاً آنئذٍ وقلت لي :

أمجنون أنت؟ لقد أصبحت رجلاً عاجزاً لا تدري ما تحمل إليك الأيام ، فكيف تهب ثروتك كلها لزوجتك ؟؟

قلت لك :

ــ امرأتي ملاك ... فلا تتعب نفسك معي ، لن يثنيني أحد عما عزمت عليه ، لم أستقدمك ناصحاً ، وإنما استقدمتك لتقوم بما أعجز أنا عن القيام به ..

أذكر أنك ابتسمت ابتسامة أسف وسخرية وقلت لي :

أعرفك عنيداً لا يفيد معك النصح ، سأنفذ لك ما تريد مني ، ولكن لا بد لي أن أقول لك : إنني لا أؤمن بوجود ملائكة على هذه الأرض . قلت لك : لو عرفت نجوى لآمنت بوجود الملائكة على الأرض . ورحت أحدثك عنها :

لن أنسى يا صديقي يوم حُملت من المستشفى إلى داري هذه ، كنت آمل أن أدخلها عروساً ، فدخلتها عاجزاً محمولاً على محفة ، ما كدت أخلو إلى نجوى حتى جمعت شجاعتي وقلت لها :

ــ إذا كتب علي أن أعيش عاجزاً فما ذنبك أنت ؟ تستطيعين أن تعودي إلى أهلك متى شئت . فأنت حرة بعد اليوم ، لا يجوز لصبية مثلك أن تعيش مع رجل عاجز مثلي ، أقول لك ذلك عن قناعة ورضا . أتدري ماذا كان منها ؟ لقد جثت أمام سريري وراحت تنتحب وتقول لي :

والله إذا أعدت قولك هذا علي مرة ثانية سأنتحر ، سأقتل نفسي هنا أمامك أفهمت ؟

أخذت يدها أقبلها ...، أمررها على وجهي ..، أبكي فرحاً ..، أبكي حزناً ..، تقفز هي إلى سريري ، وتندس إلى جانبي ، أنسى عجزي آخذها بين ذراعي إلى عالم شوق وحنان ولهفة . أسمعها تهمس : أنت منتهى دنياي ، وستظل كذلك دائماً أبداً مهما قست علينا الأقدار . أحلى ساعات عمري حين أغفو على ساعدك ..، حين أدفن رأسي في صدرك الحنون ..، أنت وحدك منتهى دنياي !..

هذه الكلمات نفسها قالتها لي يوم خطبتها ، وردني أخوها ذلك الرد غير الكريم ، لحقت بي ليلتئذ وراحت تعتذر لي وتسترضيني وتقول لي :

تأكد أن أخي لا يريد أن يزوجني من أحد ولو خطبني ملك الزمان يريدني أن أظل كقطعة أثاث من مخلفات الوالد . سأترك له الثروة التي سيحنطني وأنا حية من أجلها . سأفر معك إلى حيث تريد . إلى آخر الدنيا إن شئت ، ربما أرسل إلي من يقتلني ، قد يفعلها ، ما أحلى أن أموت من أجلك يا حبيبي ، يا منتهى دنياي .

وتفر معي من حلب إلى اللاذقية حيث نمضي شهر العسل في كوخ صغير ، ضائع في غابة منسية . لقد منحتني سعادة لا أتصور أن امرأة غيرها تستطيع أن تمنحها لرجل . كأن لكل إنسان قدْراً

محدداً من السعادة لا يجوز له أن يتجاوزه ، وقد استنفدنا سعادة عمرنا في شهر واحد . ثم داهمتنا الفاجعة التي قضت على كل شيء .

وتمر في ذهنه اللحظة الرهيبة ، فيغمض عينيه ، ويسند جبهته براحة كفه شأنه كلما تمثلها في خاطره .

كانا في طريق عودتهما من اللاذقية إلى دمشق ، كان هو يقود السيارة ، وكانت هي ملتصقة به ، كأنها طفلة صغيرة تحتمي به ، وقد أسندت رأسها على مسند السيارة فتبعثر فوقه شعرها الأشقر ، وأغمضت عينيها ، ولاذت بالصمت . كان وجهها يبدو له متعباً ، منكمش الأسارير ، كمن يتألم ، أو يساوره هم كبير . آثر أن يتركها لتفكيرها ، وراح يصفر نغماً مرحاً يشغل به نفسه :

ــ لَمَ تبدو هكذا قلقة ؟ أتراها بدأت تندم على فعلتها ؟
ــ لَمَ لا تتحدث معه ولديهما الكثير من الأحاديث ؟

كم كانت تلح عليه أن يصف لها البيت الذي أعده لسكنهما ، فكان يأبى أن يذكر لها شيئاً عنه ، كان يحب أن يجعله مفاجأة .

كان مغرماً بالمفاجآت .

اليوم سيصلان إلى البيت الموعود ، فما بالها صامتة لا تتحدث عنه كعادتها ؟. سمع منها ذات مرة أنها تحب البيوت الشامية القديمة

ذات الباحات الواسعة فاختار لها واحداً منها ، ثم انتقى له أثاثاً يتلاءم مع قدمه وعراقته ، وزينه بالتحف النادرة ، ويتخيلها كيف ستشهق مندهشة عندما ترى هذا كله ، سترتمي على عنقه تقبله ، ثم تقرص أذنه كعادتها عندما تمازحه وتقول له :

ــ يا إلهي ما أخبثك !.. كيف استطعت أن تخفي عني خبر هذا كله ؟... وتفلت منه لتدور راقصة حول البحرة وهي تغني للنافورة ، ثم تصعد رشيقة بخفة غزالة درجات الليوان وترتمي فوق الحشايا الدامسكية الطربة كأميرة من أميرات ألف ليلة وليلة .

كان ساهماً في تصوراته الأسطورية حين فتحت عينيها مرتاعة كمن يصحو من حلم مرعب ، ونظرت إلى الخلف من نافذة السيارة وقالت له وهي ترتجف :

ــ غفوت قليلاً فحلمت أنه يلاحقنا .. انظر هذه السيارة السوداء كأنها سيارة أخي ، هي بذاتها .. أحلامي لا تخطئ أبداً . وتلتصق به وهي ترتجف . ويسري الخوف منها إليه .

ويتذكر ما قصته عليه ذات مرة عن فظاعة أخيها :

ــ بعد مضي سنة كاملة على وفاة والدي زارتنا أختي ذات مرة ، وبعد تردد ، واستحياء طالبت أخي بنصيبها من الميراث فابتسم ابتسامته الغامضة التي أوجس منها شراً ، ثم قال لها :

ــ جئت إذاً تطالبين بحصتك ؟... لا بأس سيصلك حقكِ كاملاً بعد أسبوع فقط .

أتدري ماذا حدث ؟. بعد أسبوع وُجد زوج أختي في مكتبه قتيلاً !.. قيل إنه انتحر .. كلنا كنا نعرف القاتل ، ولكن من يستطيع أن يتفوه بكلمة ما دام رجال التحقيق الذين لا يخفى عليهم شيء قالوا مات منتحراً ؟!..

وإذا هو يزيد بسرعة السيارة دون وعي منه ، فتتجاوز سرعتها المئة ... ، المئة وعشرين ... ، وثلاثين ، ويفلت من يده الزمام فتدور السيارة حول نفسها ، ولم يعد يعي شيئاً .

كلما تذكر تلك اللحظة الرهيبة يقشعر جسده ، ويطفر الدم إلى وجهه وأذنيه . يفتح عينيه ليقول لها ما لم يقله قبل اليوم :

كنت أنت وحدك سبب بلائي ، ولم تصابي بأذى . لو لم تقولي لي ما ...

لم يجدها أمامه على كرسيها المعتاد . كانت قد انسلت من الغرفة وهو مغمض العينين ، سارح في ذكرياته المشؤومة . ولم تلبث أن تعود مرتدية ثوباً جديداً زاهياً لم يره قبل الآن ، ولم تسأله عن رأيه فيه كما كانت تفعل في الماضي ، وكانت تحمل بيدها صحناً مليئاً بالفاكهة ، ترتكز على حافته سكين لماعة . حادة النصل . تضع

الصحن على متناول يده . تقرِّب الراديو من سريره ، والكتاب الذي كان يقرأ فيه . تقول له دون أن تنظر في عينيه المتوسلتين :

يمكنك أن تتسلى أثناء غيابي . أنا ذاهبة ...

أنا ذاهبة !...

خنجر ينغرز في قلبه كل مساء ... يتلقى الطعنة صامتاً ...

لا شيء يعبر عن عذابه العميق إلا سكوته الذليل ، ونظراته المنكسرة . تخرج من الغرفة .. يصغي إلى نقرات خطواتها فوق رخام باحة الدار يسمع صرير الباب وهو يفتح ، ثم صوت انغلاقه . ويطبق الصمت الموحش .

يتساءل :

ما الذي غيَّرها ؟؟ . كان في بادئ الأمر يرجوها ، وأحياناً يتوسل إليها لتخرج من البيت كي ترفه عن نفسها قليلاً بالذهاب إلى السينما ، أو زيارة صديقة خوفاً من أن تسأم عشرته ، فكانت ترفض ، وتؤكد له أنها ليست بحاجة إلى ذلك كله ، وليس أحب إليها من أن تجلس معه ، يتحدثان أو يستمعان إلى شيء من الموسيقا . فإذا ألح عليها كانت تستجيب لرغبته إرضاءً له ، فتخرج من البيت وما تغيب إلا قليلاً ، ثم تعود وقد حملت إليه أزهاراً وحلوى ، وأحياناً مجلات وأسطوانات . تحدثه عما رأت ، وسمعت . فيشعر وكأنه قد خرج

معها ، وأنها لم تخرج من البيت إلا من أجله ، وأنه حقاً منتهى دنياها كما تقول له دائماً .

ويعتاد على مصيبته . لم تعد مصيبة ، لقد أصبحت أمراً عادياً مألوفاً .

ويبدأ الزمن عدو الكائنات الأزلي يفعل أفاعيله . الأيام تكر رتيبة متشابهة تنجر وراء بعضها كجثث ميتة ، بعد أن تصبح هي عاجزة عن تلوينها بألوان جديدة !.. لقد تباعدت زيارات الأصدقاء والجيران . وقد يمضي الأسبوع دون أن يطرق بابهما طارق . وراحت تخيم على جلساتهما أجواء ثقيلة .. الكلمات استهلكت معانيها . القبلات فقدت طعمها . لم تعد تثير فيهما رغبة ما . ولم تعد هي تصبر على المكوث طويلاً في البيت ..، صارت تخرج منه كل أصيل ، فإذا طال غيابها عنه راحت تعتذر إليه أعذاراً واهية كان يتقبلها على مضض ، ثم لم تعد تفكر بالاعتذار مهما يطل غيابها عنه . ولم يعد هو يملك إلا الذكريات ، يجترها أثناء غيابها ، ويعيد اجترارها . حشد من الصور والمشاهد يزحف عليه كل يوم ، يقارن بين ماضيه الوديع المشرق ، وحاضره المدلهم المفجع .

الليل وحش أسطوري يفترسه كل مساء ، يبصقه عند الفجر جثة تتنفس .

كان ليله كأساً وامرأة ... أضواءً ملونة ... موالاً يدغدغ

الشـوق والحنين أصبح كهفاً أسود يولول فيه الصمت ، وتفح من جوانبـه أفاعي الحقد والغـيرة !. ها هو ذا الليـل يزحف عليه اليوم ببطء .. آخر أشعة الشمس بدأت تنحسر عن الليمونة التي تنهض سـامقة أمام شباكه .. العصـافير تعود إلى أعشاشها .. تتغلغل بين الليمونة الفينانة .. تبدأ تغني أغنية المساء .. تضايقه زقزقتها الرتيبة . ينظر إليها حانقاً وهي تقمز من غصن إلى غصن . يود من صميمه لو يستطيع أن يقبض عليهـا واحداً واحداً ، يفتح أفواههـا الصغـيرة . ينـتزع ألسنتهـا الدقيقـة التي تزعجـه بثرثرتها الرتيبـة . يرمي بها إلى الأرض ، خرساء تتخبط من الألم .

كل شـيء تمور فيـه الحيـاة خارج غرفتـه إلا هو .. سجين سريره ، كأنه قد صب في قالب وتحجر . التحجر معناه الموت !.. حيـاته ســم يتجرعه قطرة قطرة ... يا ليته يفتك به مرة واحدة .. صـدره بئر مهجورة حشـر فيهـا الحقد ، الحسد ، الغيرة ، الهوان ، الكره ، تنصهر كلها فإذا هي نار آكلة تلهب أحشاءه .. رأسه يكاد ينفجر .. يتوقف تفكـيره لحظـة كأنه قد شُــل .. ينظر ذاهلاً من شباكه الذي هو لصق سريره تماماً ، تبدو منه باحة الدار كلها ما عدا الليوان ومدخل الدار . يحدق ببلاهة إلى الليمونة المنتصبة أمامه .

العصافير ؟...

ما بالها تصمت فجـأة ولمـا يهبط الليل بعد ؟؟ يراها ، تدير

رؤوسها الصغيرة ذات اليمين ، وذات الشمال . تنظر فزعة صوب الليوان ، وكأنها تتأمل عليه شيئاً ما ... ثم تهب مرة واحدة كأن شيئاً يجفلها ... تحط على السطح المقابل ، تعود إلى الليمونة واحداً إثر واحد . تنظر صوب الليوان بحذر وترقب . تدير رؤوسها الصغيرة كأنها تعاين عليه شيئاً ما ، ثم تهب مرة ثانية وتعود إلى السطح ثم ترجع إلى الليمونة ..

ما معنى هذا كله ؟؟.

من يجفل العصافير والبيت خالٍ ؟؟.

تتسلل إلى ذهنه فكرة مرعبة .. يساوره شك ما يلبث أن ينقلب إلى يقين .. يصيخ سمعه ، يخيل إليه أنه يسمع أصواتاً مهموسة ، وأنفاساً تفح ..

البيت ليس خالياً أبداً ...، زوجه لم تخرج منه ، أغلقت الباب بشدة لتوهمه أنها قد خرجت ، ثم خلعت حذاءها وتسللت إلى الداخل . لا بد أنها الآن على الليوان تخونه مع رجل آخر ... قد يكون صديقه الذي ظل يدأب على زيارته أكثر من أي صديق آخر . كان يلمح في عينيه نوايا خبيثة كلما ضبطه ينظر إلى زوجه . وكانت هي حين تودعه تخرج معه إلى الباب ، وتبطئ بالعودة أكثر مما ينبغي ..

في صدره تتأجج نيران ... يلتفت يميناً .. شمالاً .. كأنه

يستنجد بالأشيـاء لتسعفه ،. يخيل إليه أنها كائنات حية تهزأ به .. تسخر من عجزه .. يتـأوه .. يئن .. يصر بأسنانه .. يمزق صدره بأظفاره .. يضرب ساقيه المشلولتين بيديه ..

فجـأة يقع نظره على السكـين يلتمع نصـلهـا فوق صحن الفاكهة كأنه يغريه بابتسامة شيطانية .. يجمد برهة .. يقاوم خاطراً مخيفاً .. يعتريه شعور غريب مبهم .. يخطف السكين بلهفة .. ينظر إليها بوله .. تتسع حدقتاه عندما يقلّبها بيده .. يضمها إلى صدره .. إنها وحدها ستنقذه من جحيمه .. بعد قليل تعود الخائنة لتحمل إليه عشـاءه .. ستنحني فوق سـريره وهي تضع المـائدة على حجره .. سيعرف عندئذٍ أين يغمد السكين .. سيشتفي قلبه وهو ينعم برؤيتها تتخبط بدمـائهـا حتى تموت ... ثم .. يستـل السكـين على مهـل ويغمدها في قلبه ..، ولتنته هذه الحياة القذرة ، الذليلة ....

ساعداه ما زالتا قويتين ، كأن قوة جسده كلها قد تمركزت فيهما ، يثنيهما ، يبسطهما ، يكرر ذلك مرات عديدة ، يشعر بارتياح لذيذ ، يخفي السكين تحت الوسـادة ، تمر سـاعة . ساعتان ... لم يشـعر بضيق ، كان يتخيـل اللحظـة الرهيبـة بألف شكـل .. لذة التشفي تسري في عروقه .. لن يطفـئ النار آكلة الأحشاء إلا نافورة الدم التي ستنبثق من الخائنة عندما يغرز فيها السكين ...

يسـمع صرير البـاب .. أعصـابه كتـلة متحفزة .. عينـاه

تقدحان كعيني قط وحشي جائع يتربص بفريسته في ليلة مظلمة ..
الباب يغلق بشدة .. يهز رأسه متوعداً .. أحابيلها لا تنطلي علي ..
تريد أن توهمني أنها كانت خارج البيت ، والآن تعود إليه .. يسمع
نقرات حذائها على البلاط .. قلبه يخفق .. لماذا لم تدعني وشأني
عندما طلبتِ منها ذلك؟.. لم تبق معي إلا لأن بقاءها ييسر لها حياة
أكثر حرية وانطلاقاً من الحياة مع أهلها ، أو مع زوج آخر ..
الفاجرة !.. تريد أن تجعل مني ستاراً سخيفاً تخفي وراءه حقيقتها
البشعة !.. سأمزق الستار .. لن تبدو بعد اليوم الفاجرة قديسة ...

ينفتح باب غرفته .. تطل عليه .. يشعر أن الحياة عادت تمور
في غرفته الساكنة .. شمس ربيعية تشرق فيها ، لتبعث الدفء ..
لتذيب كتل الثلج ..

ـــ اعذرني ، لقد تأخرت عليك ، كان الفيلم طويلاً ، ولكنه
رائع جداً ، سأرويه لك بعد العشاء ، سآتيك الآن بالطعام .. كانت
عيناها تتألقان وهي تتحدث إليه كما كانتا تتألقان في أول عهدهما
بالحب ، نجمتان خضراوان تبرقان تحت غرتها الشقراء ، تبدو سعيدة
راضية ... عاد الحنان إلى لهجتها ، والألق إلى عينيها بعد أن فقدتاه زمناً
طويلاً .

يتجمد لحظة وهو ينظر إليها كمن صعقه تيار كهربائي ، ثم
يروح يردد في ذهنه قولها : اعذرني ، تأخرت عليك ، سآتيك الآن

بالطعـام . لهجتهـا رقيقـة حنون ، وعيناها تتألقان . بدأت أعصـابه تسترخي شيئاً فشيئاً .

ألا يكفيه أن ينعم بألق عينيها ؟؟..

أليس سخفاً منه أن يدينها بوشاية العصافير !؟؟..

قد تكون بريئة ...

وقد تكون !..

وإذا يده تسحب السكين من تحت الوســادة ، تطوح بها بعيداً . ينتحب بصوت خافت ، يبلع دموعه بمرارة ، ينهنه ...

ـــ لماذا أريدها أن تظل وفية لي ؟...

لماذا ؟؟.. لماذا ؟؟..

من أجل الأرض والكرامة

منذ ظهروا على الساح أصبح للخوف مفهوم آخر ، صار يتسلل إلى النفوس حين يصمت دوي الانفجار ، حين لا تسمع لعلعة الرصاص أو أزيز الرشيش ، فإذا طال الزمن يومين أو ثلاثة راح يعم النفوس ترقب قلق ، ويبدأ التساؤل الملهوف .

أمام دكان بقال في حي عربي من أرضنا المغتصبة اجتمع بضعة أشخاص جاءوا يشترون حوائجهم قبل أن يولي النهار .

قال رجل مقطوع الذراع بصوت خافت :

ــ إيش الخبر يا جماعة ؟ منذ أسبوع لم نسمع زغردة رصاصهم ؟

أجابه عجوز صلب العود بلهجة واثقة :

ــ لا تخف يا بني .. إن لم تسمعها اليوم ستسمعها غداً أو

بعد غد . لا بد لنا أن نسمعها . لقد وجدنا أخيراً السبيل الوحيد إلى الخلاص ، وهو ألا ندع المغتصبين يستريحون على أرضنا هذه لحظة واحدة .

قالت امرأة نصف وهي تحمل مشترياتها وتنصرف :

ــ صحيح يا أخي .. أنا والله حين أسمع لعلعة رصاصهم تعتريني نشوة مثل صبية صغيرة تتلقى أول رسالة حب .

ضحك شاب وهمس في أذن رفيقه :

ــ يبدو أنها لم تنسَ تلك النشوة إلى الآن ..

ابتسم البائع وقال بعد آن شمل زبائنه بنظرة فعرفهم جميعهم :

ــ أنا والله حين أسمع دوي الانفجار تعتريني فرحة عارمة مثل متهم يهبط عليه العفو فجأة وهو في قفص الاتهام .

تناولت الصبية قطعة الجبن دون أن تبتسم ، أو تشارك في الحديث كان يبدو على وجهها شيء من الامتعاض وعدم الرضا . ولو لم يعرفها البقال حق المعرفة لشك في أمرها .

كانت طويلة نحيلة ، لعينيها العميقتين اللامعتين نظرات قاسية متحدية ، شملت بها الشابين حين خرجت من الدكان ، وراحت تسرع الخطى .

ــ لم أعد أطيق أمثال هذه الثرثرات !.. لمَ لا يحمل كل

واحد بارودة ويجعل الرصاص يزغرد في كل بقعة من أرضنا المحتلة ؟ ما بال هذين الشابين يتسكعان ويضحكان ؟؟ تمنيت لو أصفعهما .

كانت الطريق إلى بيتها موحشة ، تكاد تكون خالية ، وكان صوت خطواتها التي تقرع أسفلت الشارع بصورة رتيبة يضايقها ، كأنه صدى لأفكارها المقتضبة الحاسمة .. حاولت أن تحد منه فلم تفلح ، كان يتحتم عليها أن تسرع لتصل قبل أن يهبط الظلام ، وكان عليها أن تقطع كيلومترين كي تبلغ دارها القائمة على تخوم البلدة ، ضمن بيارة برتقال صغيرة . هذه أول مرة تترك فيها أمها المجنونة وحدها في البيت ، اغتنمت فرصة نومها فجاءت مسرعة تشتري الضروري من حوائجها .

ــ ترى أيمرون بي مرة أخرى كما مروا قبل أسبوع ؟؟ حين أعطيتهم الخبز والجبن والزيتون اقترب مني أحدهم ولعله أصغرهم وهمس في أذني :

ــ أليس لديك طبيخ ؟ أي شيء مطبوخ ؟ لقد مللنا المعلبات .

لم يكن لديها طبيخ !.. تمنت لحظتئذٍ لو ينقص من أجلها وتطبخ له . كان يشبه أخاها شبهاً غريباً ، وفي مثل عمره تماماً حين استشهد قبل عشرين عاماً ، تمنت لو تقبله !..

ــ لن أدع البيت بعد الآن خالياً من الطبيخ .. ما أبلدني !..

لَمَ لم أشــترِ بعض اللحم والخضـار وأطبخها اليوم ؟؟ قد يمرون بي الليـلة ، أو غداً . هذه المجنونة أمي أعمت بصــيرتي . لقد خاطني قدري إليها منذ كنت في ربيع العمر ، وأحسبني سأظل هكذا حتى النهاية !...

عشرون عاماً ونحن نعيش في دوامة لا تنتهي ، قتل ، وتشرُّد ، وجنـون ، وذل وهوان ، ولا نفعـل شيئـاً سوى أننـا نمثـل المهزلة المأســاة !.. أيدينـا مكبلة ، وألسنتنا منطلقة وبهذا وحده نريد أن نكسب ضمير العالم !.. هراء .. نحن نعيش على كوكب كافر عاهر لا يذعن إلا لمنطق القوة .. حين نطلق أيدينا ونكم أفواهنا ونوحد صفوفنا نستطيع أن نهز ضمير العالم .

من بعيد ،أت باب سـور البيَّـارة مفتوحاً فاعتراها شيء من الرعب .

ــ هل استطاعت أن تفتح الباب وتخرج وحدها ؟

وراحت تتقدم متوجسة ، متمهلة .

ــ من عساه يكون هذا الرجل الذي يستند إلى الباب ؟ ولم تلبث أن عرفته حين تبيَّنت وجهه . إنه خالها يقف أمام باب البيت ، ومعه كيس كبير . ما كاد يراها حتى هرع إليها يسألها :

ــ مـا الخبر ؟ منذ خمس دقائق وأنا أطرق البـاب ولا من يجيب ، كيف تركتها وحدها ؟ أين أبو مصطفى ؟

ماذا تريدني أن أفعل ؟؟ أبو مصطفى مريض في بيته ، لم أره منذ ثلاثة أيام ، وأنا مضطرة أن أخرج لأشتري حوائجي بنفسي ، مسكين أبو مصطفى كان يرعاها أثناء غيابي عن البيت خيراً مني . لقد بدأ الرجل يشيخ وما أدري من سيدبر أمورنا من بعده ؟

أخرجت المفتاح من محفظتها وفتحت الباب . دلف هو قبلها حاملاً الكيس ثم وضعه على الأرض ، وجلس على مقعد في الردهة ثم قال :

ــ قد يُفرض منع التجول في الشوارع بين كل لحظة وأخرى وأنت هنا بعيدة عن الأسواق ، جئتك ببعض المؤن : رز ولحم وسمن وغيره .

ــ لماذا تتعب نفسك يا خالي ؟؟ إننا ندبر أنفسنا كيفما اتفق . قالت ذلك وهي تنظر من فرجة الباب إلى غرفة أمها :

ــ الحمد لله ما زالت نائمة كما تركتها . تنام في النهار وتصحو في الليل وتروح تدور في البيت من غرفة إلى غرفة ، ثم تقف ساعات طويلة أمام هذا الباب الذي ما تزال آثار دمائه باقية عليه إلى الآن وتردد بما يشبه الأنين جملتها التي لم تعد تنطق من الكلام غيرها .

ــ هذا دمه ... انظري إنه أحمر وردي .

إنها تأبى إلا أن تراه أحمر وردياً !...

نظر الخال إلى الباب ، كانت عليه بقع كبيرة ، لم تكن حمراء أبداً كانت بنية مائلة إلى السواد قال :

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله !... احمدي الله يا بنتي لأن جنونها جاء من النوع الهادىء ، وإلا سببت لك ازعاجاً فظيعاً .
قالت :

ـــ إنها تنام من الليل ساعة واحدة ، ولا تدعني أنسى الفجيعة لحظة واحدة . كلما رددت أمامي كلماتها أتخيل تلك الساعة الرهيبة ، يوم دخلوا بيتنا وقتلوه أمامنا . لقد مضى على ذلك عشرون عاماً ولكأنه يحدث الآن أمامي!...

ـــ لماذا إذن ترفضين أن نأخذها إلى مستشفى ؟
ـــ مستشفى ؟ معاذ الله ، أنا لا أفارقها أبداً .
ـــ أنت أيضاً لا تريدين أن تنسي .
ـــ أنسى ؟ وهل فجيعتنا يا خالي من النوع الذي يُنسى ؟؟
ـــ ليس أمامنا إذن إلا أن نسأل الله لها الشفاء .
ـــ هأهأ ، بعد جنون عشرين سنة ؟ بعد أن تجمد شعورها عشرين سنة نأمل لها أن تشفى ؟؟
ـــ إن الله يا بنتي على كل شيء قدير .

كادت أن تفلت منها جملة فظيعة استدركتها وقالت :
ـــ أستغفر الله العظيم ...

صمت الخال لحظة ثم قال :

ــ ألا ترين يا بنتي من الأنسب أن تأتي أنت وأمك إلى داري ؟ ما دام أبو مصطفى مريضاً فليس لديكما رجل يحميكما ، الصهاينة يقتحمون البيوت على أهلها متى شاءوا .

قبل أن يتم كلامه وثبت من مكانها كقطة متوحشة ووقفت أمامه وقالت بحدة وانفعال :

ــ أرجوك يا خالي لا تلفظ أمامي كلمة الحماية هذه ، لا تلفظها أبداً أرجوك .. إنها تسمني ، تقتلني ، ألم يصر أبي على أخي أن يترك المقاومة ويأتي إلى البيت ليحمينا ؟ اضطر أن يذعن لمشيئة أبيه ، فكان أن لحق به الصهاينة إلى هنا ، لم يستطع مقاومتهم وحده ، قتلوه أمامنا !.. هل نسيت ؟!.. هذا دمه ما تزال آثاره باقية على هذا الباب ، ذكرى رهيبة !... لن أمحوها ما حييت !..

أمي جنت ، وأبي مات كمداً ، وأنا اغتيل شبابي منذ كنت في الخامسة عشرة ، شعرت أنني قد شخت منذ تلك اللحظة . آن لنا أن نفهم ، لا شيء يستحق الحماية سوى الأرض .. حين نحميها نحمي كل شيء .. أنا لا أخرج من داري هذه إلا جثة هامدة . حين أخرج سيحتل العدو مكاني حتماً . هذه هي الكارثة الكبرى ، وليس موته هو ، أو موتك أنت ، أو موتي أنا ، أو جنونها هي ، أو أي أمر مهما يبلغ من الفظاعة . قم يا خالي عد إلى دارك قبل أن يسود

الليل ، ولا تخشَ علي شيئاً ، إنني أستطيع أن أحمي نفسي بنفسي . لم يجد ما يجيبها به ، فقام متثاقلاً وودعها وخرج من الدار وهو يشعر أنه قد تخفف من واجب ثقيل .

ما كاد يخرج حتى عمدت إلى الكيس فأفرغت ما فيه ووضعت كل شيء في مكانه . ثم نظرت إلى قطعة اللحم وفكرت قليلاً :

ـــ قطعة لحم كبيرة من أجلنا وحدنا ، أنا وهذه العجوز المجنونة ، والذين يحاربون يعيشون على المعلبات !.. معاذ الله .. سأطبخها مع الرز وأضعها في البراد ... من يدري ؟ قد يمرون بي ..

وقامت من فورها وأشعلت البريموس وأخرجته من المطبخ ووضعته في الردهة لتراقبه عن كثب وتناولت أكبر قِدر لديها ، وضعت فيها اللحم وغمرته بالماء ثم رفعت القدر على النار ، وقعدت تنقي الرز . شعرت بشيء من الرضا والارتياح فراحت تدمدم بنشيد حماسي وهي تقول في نفسها :

ـــ آه لو أستطيع أن أعمل شيئاً يرضيني عن نفسي ، أن أشارك في عمل بالغ ما بلغ من الخطر ، أنا لا أشعر بالخوف مطلقاً من أي شيء . عشرون عاماً وأنا أمضغ الذل مع كل لقمة ، وأشرب الهوان مع كل جرعة ، ولا أفعل شيئاً ، سوى أنني أجتر مأساتي ،

كأنني قد تحنطت على هذا الشكل . غسلت الرز ووضعته فوق اللحم وذرت عليه الملح والفلفل ، ثم راحت تتفقد أمها .

ما كادت تدخل الغرفة حتى دوى انفجار هائل زلزل منه البيت حتى خيل إليها أنه سيتداعى فوق رأسها . راح قلبها يضرب بقوة وعنف ، على الرغم من أنها لم تشعر بشيء من الرعب .

ــ لا شك أنهم نسفوا المخفر الصهيوني القريب من هنا .

كنت كلما أمر من أمامه أتمنى لو أن معي قنبلة لأقذفها في وجه رئيسه الذي كان يتحدى المارة بنظرات حاقدة ، شامتة ، لئيمة .

قفزت المجنونة من فراشها ووقفت في منتصف الغرفة . كان جسدها يختلج ، ونظراتها هالعة زائغة ، تتلفت يميناً ويساراً وصدرها يعلو ويهبط .

ــ لا تخافي يا أمي ــ لا تخافي ــ إنهم يقتلون الذين قتلوا ابنك أحمد .

أخذت شفتا المجنونة ترتجفان وهي تتمتم :

ــ أحمد .. هذا دمه ، انظري أحمر وردي ، وتشير إلى البقعة البنية المائلة إلى السواد .

سحبت أمها من يدها وأجلستها على حافة السرير ، وجلست إلى جانبها وأحاطت بذراعها كتفيها وراحت تهدهدها كطفل صغير :

ــ لا تخافي يا أمي ، لا تخافي ، ما عساه يحدث أكثر مما حدث ؟ .

مرت لحظات صمت بعد الانفجار ، ثم دوى صوت طائرة ، وجلبة سيارات .

ــ يا إلهي تحميهم .. ترى هل فروا ؟.. هل أصيب أحد منهم ؟.. هل أصابوا هدفهم كما ينبغي ؟... هل يلتجئ أحدهم إلى هنا ؟...

وإذا وقع أقدام ثقيلة في الخارج ، تقترب ، وتقترب ، وأضواء تلتمع تظهر من النوافذ كالبرق الخاطف . راحت تصغي إلى الضجيج وتقول بأسىً :

ــ آه ليسوا هم !.. إنهم يأتون كالأطياف خفافاً لطافاً ، وإذا هم في لحظة شياطين مردة ، يضربون ضرباتهم القاصمة ، وكوميض البرق يتوارون . وإذا ضربات عنيفة تنهال على الباب ، انفتح إثرها على مصراعيه ودخلوا شاهرين أسلحتهم .

لم ترتعد حين رأتهم ، كأنها قد أعدت نفسها لأسوأ الأمور . وقفت أمامهم صامدة متحدية ، وأمها وراءها تتكئ على كتفها وتتطلع إليهم بنظراتها الهالعة الزائغة .

لم يتغير شيء !.. إنهم هم كما جاءوا قبل عشرين عاماً . فيهم الشقر والسمر ، والطوال جداً والقصار جداً ، ليس بينهم شيء

متشـــابه سوى نظراتهم القاسية الحاقدة . كان بينهم هذه المرة امرأة ترتدي الزي العسكري ، كانت قصيرة ، بدينة ، ذات شعر أحمر ، ووجـه مليء بـالنمش ، راحت تتفحص البيت والغـرف ومحتـويـاتها بنظرات وقحة شرهة وتتكلم هامسة مع بعض الجنود .

قال رئيسهم بلغة عربية سليمة ، ولهجة مستعلية :

ــ من يسكن هنا غيركما ؟

ــ لا يوجد أحد غيرنا . أنا وأمي ، إنها مريضة جُنت يوم قتلتم ابنها أمامها ، هنا في هذا المكان نفسه منذ عشرين عاماً .

قال بسخرية شامتة :

ــ وأنت مالك ؟ لِمَ لم تجني مثلها إلى الآن ؟؟

ابتسم بعض الجنود . أجابته بعدم اكتراث .

ــ أمر الله .. ما زلت قادرة على احتمالكم !

ــ حسناً .. قولي لنا الآن : ألم يختبئ عندك أحد من هؤلاء المجرمين المخربين ؟؟

أجابته باعتزاز :

ــ أتقصد الفدائيين ؟

ــ يـا وقحـة ! أتجرؤين على تسميتهـم بالفدائيـين ؟ وأمامي أيضـاً ؟ وارتفعت يده وهوت على وجههـا بلكمة أطاحت بها إلى الأرض .

فجأة صاحت المجنونة : بنتي ، بنتي وارتمت فوقها .

اعتدلت وأجلست أمها وعانقتها دون أن تنبس بكلمة ، لم تنتبه إلى أن أمها نطقت بكلمة غير جملتها المعهودة التي لم تعد تنطق من الكلام غيرها .

قال الرئيس لرجاله :

ــ هيا فتشوا الدار ، ربما وجدنا هنا بعض الأسلحة أو المتفجرات .

وانتشر الجنود العشرة في البيت ، دخلوا جميع الغرف ، نبشوا الفرش والوسائد وقلبوها على أسرتها ومزقوا قماشها ، كسروا أبواب الخزائن وفتحوها ونثروا محتوياتها على الأرض ، دخلوا السقيفة والمطبخ وكسروا ما وقعت أيديهم عليه . ثم خرجوا إلى الردهة وعلائم الخيبة بادية على وجوههم لأنهم لم يجدوا شيئاً . قال رئيسهم مهدداً :

ــ إياك أن تؤوي أحداً منهم ، وإلا نسفنا البيت في لحظة .

لم ترد عليه بكلمة كأنها لم تسمع ما يقول . ظلت هي وأمها قاعدتين على الأرض مستسلمتين إلى قدرهما بصمت ذليل قاهر ، كانت تغالب الدمع وتبتلعه خشية أن تثير شماتتهم .

كانت المرأة ذات اللباس العسكري تتحدث إلى الجنود وتشير إلى القدر الكبيرة التي كان يتصاعد بخارها فيملأ الردهة برائحة الطعام وتشير إلى المرأتين كأنها تقول :

ــ أهذه القدر الكبيرة من أجل طعام هاتين المرأتين فقط ؟ ثم رفستها برجلها قبل أن تخرج فانكفأت وانتثر الرز واللحم على الأرض ، وقهقه الجنود .

ما كادوا يتوارون عن عينيها حتى انفجرت باكية بصوت عال غير آبهة بأمها المسكينة التي كانت تلوك الكلام فلا يسعفها النطق .

كان الباب ما يزال مفتوحاً على مصراعيه . فإذا يد كبيرة سمراء تمتد واجفة ببطء وتقبض على مصراع الباب ، كان الدم يشخب من الأصابع السمراء على الباب فيغطي البقع البنية المائلة إلى السواد بالأحمر القاني .

رأتها العجوز فصاحت بابنتها :
ــ انظري الدم ... هل تستطيعين الآن أن تقولي إنه ليس أحمر وردياً ؟؟

هبت الصبية واقفة وقفزت نحو الباب ، فإذا هو أمُامها وجهاً لوجه .. كان شاحباً يجر رجليه بوهن ، ما كاد يراها حتى تهالك على كتفها ، سحبته برفق ، وأجلسته على المقعد الذي في الردهة . نظر حوله وقال بحرقة وغيظ :
ــ الكلاب الجبناء .. ما هذا الذي فعلوه بكما ؟؟ أراهم يمارسون شجاعتهم على العزَّل والضعفاء ..
ــ لا يهمك أمرنا .. أما أنت ، هل إصابتك بليغة ؟؟

ـــ أنت أيضاً لا تهتمي بأمري . المهم أننا نسفنا المخفر بمن فيه ، وفر الرفاق ، لم يصب أحد سواي ، جرح في ساقي ، وآخر في كفي . لم أستطع أن ألحق بهم ، لطيت بكومة أحجار قريبة من هنا ، لقد أعماهم الله عني على الرغم من الأضواء الكاشفة التي سلطوها على المكان كله ، رأيتهم حين دخلوا عليكما ، ورأيتهم حين خرجوا ، خشيت أن يكونوا قد آذوكما فانتظرت حتى تواروا وجئت أطمئن .

قالت :

ـــ لا تخشَ شيئاً ، لن يعاودوا تفتيش بيتنا مرة ثانية ، سأبقيك عندنا حتى تشفى ، أنا لا أخشى وعيدهم ، سأضمد جراحك ، وسآتيك غداً بطبيب إذا اقتضى الأمر ، لدي ضمادات ومطهرات ، لكن آه كيف أعثر عليها الآن بعد أن فعلوا ما فعلوا ؟

وقامت خفيفة نشيطة وراحت تنبش بين الأشياء المنثورة على الأرض حتى عثرت على ما تريد ، ثم أخذت تساعده على خلع معطفه وبنطاله الملوثين بالدماء ، ثم قعدت أمامه تعالج جراحه .

كان مغمض العينين ، مرتاح الأسارير ، مستسلماً إليها وإلى آلامه بصبر عجيب لا يئن ولا يتوجع .

وإذا العجوز تهتف مبتهجة :

ـــ أنظري لقد عثرت على ألبسة أحمد .. خذها يا ابني إنها تلائمك تماماً ، وحين تسكن جراحك ستنطلق إلى حيث رفاقك .

ذهلت الصبية لحظة ثم صاحت :

ـــ أمي !.. يا إلهي أنت تتكلمين كما يتكلم الناس !..

ثم رفعت يديها ضارعة إلى السماء :

ـــ أستغفرك يا إلهي ـــ أستغفرك وأتوب إليك ، حقاً إنك على كل شيء قدير .والتفتت إلى الشاب وقالت له :

ـــ هذه أمي جنت ، وتجمد شعورها عشرين عاماً ولما رأتك أنت استردت وعيها في لحظة ، لقد أيقنت أن تضحيتها لم تذهب سدىً .

مفتـــاحان

ويتخذ مكـانه إلى جانب سـائق السيارة ، يجلس رفاقه على مقعـدهـا الخلفي . كانوا قد أنهوا تدريبهـم في دمشق وهم الآن في طريقهم للالتحاق بمنظمتهم على حدود الأرض المغتصبة . راح ينظر إلى بذلته المبقعة وخفيه المطاطيين ، يتحسس بيده بندقيته وأمشاط الرصاص والقنبلتين فيشيع في كيانه ارتياح ورضا لا عهد له بهما ، لخلاصه من قلق لا يدري منذ متى بدأ يعذبه ، قد يكون منذ تفتح وعيه على هذه الدنيا فإذا هو الفلسطيني اللاجئ ، اليتيم المشرَّد .

ــ كان يجب أن أفعل ما أفعله الآن منذ اشتد سـاعدي ، ولكن أين كنا ؟؟!.

فجأة يتراءى له وجهها الوديع ذو الغضون العميقة ، يغمض عينيه ليستوعب الصورة الغالية عليه ، أمه التي عهدها صامدة جبارة كيف تشيخ هكذا بين ليلة وضحاها ؟؟ منذ أخبرها أنه أنهى تدريبه

وسيلتحق غداً بمنظمته على الحدود . إنها لم تتخطَّ الخمسين بعد ، وقد بدت له ساعة الوداع عجوزاً ، هرمة ، مستكينة . حين تشبث به صبيانه الثلاثة ووقفت زوجه أمامه ترقب المنظر هالعة ، وفي عينيها دموع حبيسة ظلت أمه جامدة لا تنبس بكلمة ، ولا تأتي بحركة ، كأن شعورها قد تبلد ، أو كأنها قد أصبحت لا تبالي بشيء ، ولكن لما هوى على يدها يقبلها ضمته إلى صدرها بوله ، وراحت تتحسس سلاحه بيديها الهرمتين المتعبتين وهي ما تزال مصممة على الصمت ، لم تتمتم شفتاها حتى بكلمة دعاء .

ــ ماذا أصابها ؟. ليتني لم أبعث إليها بتلك الرسالة التي بعثت بها من الكويت إلى القنيطرة قبل النكسة بأيام قلائل .. ما أصعب أن تلوح الآمال الحلوة المشرقة لامرأة معذبة شقية كأمي ثم تختفي فجأة كما يختفي السراب !..

وراحت تمر في ذهنه بعض مقاطع من الرسالة :

أمي يا أروع أم .

إن اللاجئ اليتيم الذي استطعت أن تصنعي منه بجهدك وحدك مهندساً كبيرا ، مد يده البارحة ليقبض أول مرتب له ، ثلاثمئة دينارٍ كويتي . تصوري يا أمي هذا يعني ثلاثة آلاف ليرة سورية مرة واحدة . لقد آن لك أن تستريحي بعد أن تعبت كثيراً . ماكينة الخياطة التي ظللتُ عشرين سنة أنام وأصحو على هديرها ، وأنا أراك

مكبة عليها، تعملين، وتعملين دون تذمر أو شكوى، اكسريها يا أمي إن لي عندها ثأراً كبيراً، لقد أحنت قامتك العتيدة قبل الأوان، وسرقت ألق عينيك الحلوتين، ولكن لا تنسي أن تحتفظي لي بقطعة صغيرة منها، سأضعها في إطار ثمين وأعلقها في أبرز مكان من بيتنا الذي أهيئه لكم الآن هنا، لنراها دائماً أنا وزوجي وأولادي كرمز لكفاحك الطويل في سبيلنا جميعاً. لقد ذهب بك تفانيك في حب فتاك اليتيم إلى حد أصرَّيت عليه أن يتزوج حين لمحت أول بوارق الحب تشع في عينيه نحو تلك التي كانت تعمل معك لتأخذ الصنعة عنك، وبدافع من أنانية الشباب وطيشه أذعن لمشيئتك حين قلت له: أحب أن أرى أطفالك قبل أن أموت. وما أدري كيف تمر الأيام سراعاً فإذا أنا زوج وأب لثلاثة أطفال وما أزال طالباً في الجامعة، وأنت وحدك تعيلين أسرتنا التي أصبحت كبيرة.

كادت الدموع تطفر من عينيه وهو يتذكر ذلك كله.

ـــ غفرانك يا أمي إذا خذلتك وأنت في شيخوختك فسلبتك الراحة التي وعدتك بها لطالما سمعتك تقولين:

ـــ ما قيمة إنسان بلا وطن؟

وأنا أقول لك:

ـــ ما حياة إنسان يحمل العار على منكبيه؟ عار حزيران من يمحوه إن لم نمحه نحن أبناء فلسطين؟؟

كان السائق ما يزال يتفقد السيارة حتى إذا اطمأن عليها قعد خلف المقود ، فرك يديه وأداره وقال : على بركة الله .

وتنطلق السيارة ، وينطلق السائق يغني أغنية مرحة ، ثم يلتفت إلى الشباب ويقول :

ــ ردوا معي يا شباب ، ما لكم ساكتين هكذا ؟؟

كأنه قد أدرك أن حمل أربعة شباب إلى مصير مجهول يقتضي إضفاء شيء من المرح في لحظة الانطلاق الأولى أصعب اللحظات في حياة أي جندي يذهب إلى الميدان .

ويستجيب له الشباب فيروحون يرددون بحماسة :

بالله صبوا هالقهوة وزيدوها هيل واسقوها للنشامى عاظهور الخيل

إلا الذي كان جالساً إلى جانب السائق فقد ظل سادراً في تفكيره القاتم . وتنتهي الأغنية ويعود الصمت .

كان الجو صافياً ونسمات ناعمة راحت تداعب الوجوه الفتية . قال واحد من الجالسين في الخلف :

ــ أتمنى أن أرسل منذ وصولي في مهمة إلى حيفا ، أنا حيفاوي أباً عن جد ولا أعرف حيفا . تقول أمي كان عمري سنة واحدة يوم النزوح عنها ، كم يحرق قلبي ألا أعرف بلدي !..

تنهد الجالس إلى جانب السائق وردد في ذهنه :

ـــ كنت سعيد الحظ يا صاحبي لأنك لم تعِ ذلك اليوم المشؤوم ، يوم النزوح عن حيفا ، يا له من يوم !..

وراحت تنداح في ذهنه صورة إثر صورة من ذلك اليوم المزدحم بالصور التي لا تنسى . فانشغل بها حتى لم يعد يعي ما يدور بين زملائه من أحاديث . بعض الذكريات التي لها تأثير كبير على حياة إنسان ما تزداد وضوحاً كلما بعد بها العهد ؛ فإذا أثار كوامنها شيء ما يقوم الذهن على الفور بعملية انتقاء سريعة ، ذكرى تقفز من الماضي السحيق ، واحدة تأتي من الماضي القريب ، أخرى تطفو من أعماقِ اللاوعي لتنتظم كلها في سلك واحد فإذا هي سلسلة مترابطة كان لا بد لها أن تؤدي إلى تلك النتيجة الحتمية التي أدت إليها في حياة ذلك الإنسان .

يوم النزوح يعود من مدرسته مع الأصيل ، يحمل محفظته على كتفه ، كان يوماً ربيعياً دافئاً ، وكان هو يشعر بسعادة تملأ كيانه ، وقف برهة أمام باب البيت يتأمله بكثير من الاعتزاز ، كان جديداً لم يمضِ على سكناهم فيه إلا أسبوع واحد ، وكم كان يمضه ويزعجه حين كان يسكن مع أسرته في بيت متواضع تتقاسمه مع أسرة ثانية .

يدق جرس الباب دقاً متواصلاً ، تفتح له أمه ، كانت ترتدي ثوباً جديداً ، وقد أتقنت هندامها ربما لتنسجم مع البيت الجديد ،

فقد عهدها دوماً مهملة نفسها ، تخيط ثياباً أنيقة للأخريات ، وترتدي هي الثياب البسيطة الرخيصة . قالت له :

ــ انتظرتك طويلاً ، تعال امسك لي السلم لأعلق ستائر غرفة الضيوف قبل أن يعود أبوك ، ليرى أن كل شيء قد تم أخيراً في بيتنا الجديد .

وضع محفظته على الأرض وتبعها إلى غرفة الضيوف ، اتكأ على السلم بكل ثقله ، وصعدت هي عليه تحمل الستائر ، ثم علقتها ونزلت عنه ، أزاحت السلم وراحت تتأملها بشغف وهي تدمدم أغنية شائعة . كانت تبدو سعيدة راضية كما لم يرها هكذا أبداً . وكانت الستائر جميلة ينسجم لونها الأخضر مع لون الجدران الرمادي ، حقاً إن أمه ذوَّاقة ، كل شيء في البيت كان يلمع ويشع ويشعر بما انطوت عليه ربة البيت من ذوق مرهف ، وحب للنظافة والترتيب .

قالت له :

ــ تعال نقف على الشرفة ننتظر أباك .

كان المنظر من الشرفة بالغ الروعة ، عن اليمين ينهض جبل الكرمل بأشجاره الداكنة الخضرة ، ومن الأمام ينبسط البحر أزرق غامقاً تتسابق على أديمه موجات بيضاء صغيرة ، ذات هدير خافت ، وفي الأفق البعيدة غيمة كبيرة ، رمادية دكناء ، ذات إطار برتقالي

حجبت الشمس وهي تتوارى في البحر فأضفت على المساء مسحة حزن وديع . التفت إلى أمه ليقول لها شيئاً فرأى عينيها قد امتلأتا بالدموع فصمت برهة مستغرباً ذلك ثم قال لها :

ـــ أتحبين البحر ؟

ـــ أحبه كثيراً .

ـــ كيف تحبينه وقد قلت لي أنه ابتلع أباك ذات يوم ؟

ـــ أحبه لأن أبي كان يحبه .

ـ هل كان جدي صياداً ماهراً ؟

ـــ كان أمهر صياد في حيفا ، ما عاد يوماً من البحر إلا وشبكته مليئة بالسمك ، وكنت أنا ابنته الوحيدة ، ماتت أمي وأنا صغيرة فدللني كثيراً ، وأرسلني إلى المدرسة كنت الوحيدة التي تذهب إليها من بنات الصيادين ، رحمه الله كم كان طيباً ، كنت أسمعه يقول :

ـــ اللّهم اجعل مثواي في هذا البحر ، لأن يأكلني سمك البحر أحب إلي من أن يأكلني دود الأرض ، فاستجاب الله دعاءه فكان له ما أراد .

ـــ لماذا تبكين إذاً وقد كان له ما أراد ؟

ـــ أبكي لأنه مات قبل أن يحقق أمنيته الغالية ، وقد ظل طوال عمره يحلم بها .

ـــ وما كانت أمنيته ؟

ـــ كانت أمنيته أن يبني هذا البيت ويسكن فيه ، ظل أربعين سنة ـــ كما قال لي قبل أن يموت ـــ يصارع البحر ويجمع ما يكسبه منه قرشاً فوق قرش حتى استطاع أن يشتري هذه الأرض ، انظر أليست أجمل مكان في حيفا ؟ لكن البحر غدار ابتلعه قبل أن يبني البيت وينعم به .

ـــ لكن أنت وأبي قد حققتما الأمنية ، ألا يسر ذلك جدي ؟ ألم تقولي لي مرة أن الأموات يزوروننا ، ويعلمون ما يجري في دنيانا هذه فيفرحون لفرحنا ويحزنون لحزننا ؟

فعانقته وقبلته وقالت له :

ـــ عرفت والله يا شيطان كيف تعزيني .. هذا البيت سيؤول إليك يوماً ما ، تذكر دائماً أن جدك صارع البحر أربعين سنة حتى اشترى أرضه ، وظللنا أنا وأبوك نكدح ونقتر على أنفسنا عشر سنوات كاملة حتى بنيناه على هذا الشكل الجميل ، فاعرف أنت كيف تحافظ عليه . إن البيت يا بني سترُ الأسرة . ها قد جاء أبوك اركض فافتح له الباب .

دخل أبوه مرتبكاً متجهم الوجه . قالت أمه :

ـــ خير إن شاء الله ، مالك ؟

ـــ الأخبار سيئة جداً ، غدر بنا الانكليز ، ذهبوا وتركونا للصهاينة دون أي استعداد ، لا بد من نشوب معركة كبيرة ، وقد بدأت بوادرها اليوم في البلد منذ الصباح والسيارات الكبيرة تنقل

النساء والأطفال من البلد بعد دقائق قليلة ستمر إحداها من هنا وقد حجزت فيها مكاناً لك وللولد ، أسرعي وارتدي ملابسك ، وخذي معك ما يكفيك ليومين أو ثلاثة .

وقفت أمامه مبهوتة دون حراك .
ـــ ما لك جمدت هكذا ؟ ألم تفهمي ما أقول ؟؟
ـــ لن أتركك ، ولن أخرج من بيتي ، إن الذي سيجري عليك سيجري علينا جميعاً .
ـــ لا تتعبيني يا امرأة ، ليس لدينا وقت للأخذ والرد .
ـــ وأنت لا تتعب نفسك ، لن أخرج من بلدي ، لن أدع بيتي .

ـــ أعوذ بالله من عنادك !.. أنا رجل ، وأنت امرأة .. أتريدين أن يعتدي عليك اليهود كما اعتدوا على الكثيرات ؟ أرجوك لا تضيعي الوقت ، ها هي ذي السيارة قد وصلت ، لن تنتظرك دقيقة واحدة ، تحركي ، ما لك هكذا كالصنم . ذهب إلى غرفتها ، أخذ ملاءتها من الخزانة ، سحبها من يدها ، قاومت ، لطمها على وجهها ، استكانت ، وراحت ترتدي ملاءتها على عجل ودموعها تجري على خديها بصمتٍ . مد يده إلى جيبه أخرج منها شيئاً دسه في يدها وقال :

ـــ مفتاح البيت ، وهذه النقود قد تحتاجين إليها ، القضية لن

تطول أكثر من بضعة أيام وستعودين إلى بيتك ، ستتدخل الجيوش العربية .

دفعها نحو الباب ، ودفعني خلفها .

كانت السيارة مكتظة بالنساء والأطفال والشيوخ ، وكثير من الصرر وُضعت كيفما اتفق . جاء رجل يهرول ويلهث حاملاً على ظهره امرأة ملفوفة بملاءة سوداء ، فتح باب السيارة وقال :

ــ خذوها معكم يا جماعة كرامة لله ، هذه آخر سيارة تخرج اليوم من البلد ، إنها نفساء ، ومريضة لا تتحمل رجة واحدة . حسبوها بنتكم .

لم ينبس أحد بكلمة ، لم يكن في السيارة مكان واحد ، الأطفال كانوا في أحضان النساء ، ولم أكن صغيراً كنت في العاشرة ، سحبتني أمي إلى حضنها وأشارت إلى مكاني ــ ارتمت عليه الصبية ، كانت شاحبة جداً وأنفاسها تتلاحق ، استرخت على المقعد وأغمضت عينيها دون أن تنطق بكلمة . لوَّح أبي لنا بيده وابتسم لأمي كأنه يعتذر لها عما فعل ، شملته بنظرة هالعة ، لن أنساها عمري ، كأنها أدركت أنها آخر نظرة لزوجها ، الحبيب ، ثم رنت إلى البيت وتنهدت من أعماقها ، وأدارت عنه وجهها وراحت تشدني إلى صدرها وتضغط عليَّ بذراعيها حتى آلمتني ، وأنا مستكين إليها كأنها لا

تعي ما تفعل ، ربما أحست في تلك اللحظة أنه لم يعد لديها في هذه الدنيا سواي .

وتنطلق بنا السيارة نحو دمشق لتفرغنا عند الفجر في أحد جوامعها الرطبة . بمثل هذه السهولة نزحنا عن حيفا . ومنذ تلك اللحظة أصبح لدينا كثير من الأسماء ، اللاجئين ، النازحين ، المشردين ، المطرودين ، والمتفائلون جداً راحوا يسموننا العائدين !..

صور أخرى راحت تتراءى له ، دموع أمه الغزيرة وحزنها الصامت يوم جاء من حيفا من يخبرها أن زوجها استشهد على عتبة داره وهو يقاتل المغتصبين . كان أحياناً يصحو بالليل على صوت نشيج أمه فإذا أحست أنه استيقظ بلعت دموعها وراحت تهدهده وتطيب نفسه حتى ينام .

ذات يوم وقف معها أمام وكالة غوث اللاجئين ساعتين كاملتين في الشمس المحرقة ، ولم يأت دورهما لأخذ نصيبهما من الإعاشة ، وإذا أمه تسحبه من يده وتقول له :

ــ تعال معي ، هذه يا بني لقمة مغمسة بالذل ، غنانا الله عنها .

خلعت يومئذ من يديها سواريها الذهبيين الغاليين عليها جداً هدية عرسها وذهبت إلى السوق واشترت بثمنهما ماكينة خياطة عتيقة ، راحا يتناوبان حملها حتى أوصلاها إلى غرفتهما الصغيرة التي

استأجرتها أمه في بيت امرأة عجوز طيبة ، قالت العجوز لأمه عندما رأت ماكينة الخياطة :

ــ يا مسكينة !.. أتودين أن تشتغلي خياطة في هذا البلدِ ؟ ما أكثر الخياطات فيه ، لكن أستطيع أن آخذك ــ إذا شئت ــ إلى بلدة القنيطرة ، إن أهلي يسكنون هناك ، سأستأجر لك غرفة عندهم ، والبلد على ما أعلم بحاجة إلى خياطات . لم يمضِ على سكنهم في القنيطرة إلا سنوات قلائل حتى فتح الله على أمه باب الرزق فأصبحت خياطة مشهورة . واستطاعت من كفاحها ، من كدحها ، من غرز ابرتها ، من سهر لياليها عشرين سنة أن تدفع لابنها نفقات التعليم حتى أصبح مهندساً ، كما استطاعت أن تبني هناك بيتاً حرصت على أن يكون على غرار بيتها في حيفا ، يا لها من امرأة نادرة .

ترى كيف ودعت بيتها يوم نزحت عن القنيطرة ؟ أبتلك النظرة الهالعة نفسها التي ودعت بها بيتها في حيفا ؟؟

يوم النزوح عن القنيطرة كان في الكويت ، قيل له إن الصهاينة ساقوا الأهالي كالقطيع إلى خارج البلدة وتركوهم هناك في الصحراء بعد أن قتلوا منهم من قتلوا ، وسلبوا منهم ما راق لهم أن يسلبوا . شعر بانتفاضة تسري في أوصاله وتوقد شعلة الغضب في نفسه حتى راح

جسمه يرتجف كله وهو يتصور أمه وأطفاله وزوجه يطردهم الصهاينة من بيتهم ويسوقونهم أذلاء مهانين إلى خارج البلدة .

مد يده إلى جيبه ليخرج علبة دخانه فإذا هي تعثر على شيء غريب في جيبه ، أخرجه فإذا هو سلسلة معدنية فيها مفتاحان ، أحدهما كامد ، والآخر لماع ، وقد ثبت في طرف السلسلة ورقة صغيرة ، ما كاد يفتحها حتى عرف خط أمه :

« اغفر لي يا بني سكوتي ساعة وداعك ، لقد صممت أن أصمت سلفاً خشية أن تخونني شجاعتي فأبكي أمام زوجك وأطفالك ، الشيخوخة يا بني ضعف ، كنت أعرف أن لا بد لي أن أبكي إذا فتحت فمي لأنطق . وضعت لك في جيبك سلسلة فيها مفتاح بيتنا في حيفا ، ومفتاح بيتنا في القنيطرة ليكونا لك كتميمتين حافزتين لك على المضي في الكفاح . وسأضع في عنق كل من أولادك ، خالد وأسامة وطارق سلسلة فيها مفتاحان أوصيت عليهما على غرار مفتاحيك كي لا ينسوا أبداً أن لهم حقاً يجب أن يسعوا وراءه حتى ينالوه . لم نصطحب معنا من القنيطرة إلا ماكينة الخياطة التي طلبت مني مرة أن أكسرها وأستريح ، ما زلنا يا بني بحاجة إليها ، زوجك أتقنت الصنعة خيراً مني ، وأنا ما زال بي بقية من قوة على العمل فليطمئن بالك علينا حفظ الله ، ورعاك » .

شعر بارتياح عظيم وهو يقرأ الرسالة ، فلما انتهى منها قبض على المفتاحين وراح يعبث بالسلسلة يدورها حول سبابته :

ــ ما أعظمك يا أماه ، لقد أدركت أن معركتنا طويلةً وشاقة إن لم أفز أنا ، لا بد أن يفوز أبنائي ، ويلتفت إلى رفاقه ليقول لهم :

ــ اسمعوا يا جماعة ماذا كتبت لي أمي ، أمي التي طردت من ديارها مرتين ، وقتل الصهاينة زوجها ، واغتصبوا منها بيتين ، سرقوا جهدها ، وجهد زوجها وأبيها ما زالت على الرغم من شيخوختها مصممة على الصمود والكفاح .

وراح يقرأ عليهم الرسالة بكثير من الاعتزاز .

الفهرس

ويضحك الشيطان وقصص أخرى / الفة الأدلبي . ـ ط . ٢ . ـ
دمشق : دار طلاس، ١٩٩١ . ـ ١٩٢ ص؛ ٢٠ سم .

١ ـ ٨١٣٫٠٣ ا د ل   و٢ ـ ٨١٣٫٠٠٩٥٦١ ا د ل
و ٣ ـ العنوان   ٤ ـ أدلبي
مكتبة الأسد

ع ـ ١٩٩١/٦/٥٣٢

رقم الإصدار ـ ٥٣٠

آراء في المؤلفة

خير ما في قصص ألفة الادلبي أنها طراز خاص، وشخصية مستقلة. فيها تصوير للحياة الشرقية. فهي شرقية الجو والروح والنزعات. أما التمهيد للمواقف، وبراعة السبك، ودقة المعالجة في هذه القصص فتريك المصاير طبيعية، لا تكلف فيها ولا تزوير.

«محمود تيمور»

أما الطابع الذي ارتضته فعرفت به وعرف بها فهو طابع (الشامية) وأعني بالشامية تلك الخصائص العقلية والسلوكية التي تتصف بالنعومة والتهذيب والمصالحة وغير ذلك من ولائد حضارة قديمة متوارثة كونت الخلق الشامي وجعلته نسيج وحده. إن لقصص السيدة ادلبي قيمة وثائقية فولكلورية حملت الكتّاب في الشرق والغرب على ترجمتها إلى لغاتهم المتعددة.

«إبراهيم كيلاني»

أنا أؤمن بالذاتية قبل كل شيء. وقد رأيت السيدة ألفة الادلبي ذات ذات. فعلى هذا الأساس بنيت تقديري لها.

لقد استطاعت أن تصور لنا في أقاصيصها أعماق نفسية المرأة وبدواتها ونزواتها فأفادت بذلك القصة العربية جداً. ومن أدرى من المرأة بالمرأة؟

«مارون عبود»

تتميز السيدة ألفة الادلبي بموهبتها البارعة في تسجيل قصص الحياة الواقعية بأسلوب رائق، وسرد طلي مستمدين من نضارة الحياة الشامية التي تصفها فيما تكتبه. وتكاد السيدة ادلبي أن تكون الوحيدة بين قصاصينا وكاتباتنا القصصيات التي بلغت بهذا النوع من الفن القصصي هذه الدرجة من الكمال. ومن يقرأ كتابيها «قصص شامية» و «وداعاً يا دمشق» يدرك ما قلته بوضوح.

«عبد السلام العجيلي»

